مجلة (نوافذ الحكمة)

العدد 1/ الروحيات

مجلة دورية تصدر أسبوعيًا

تابعة لمكتبة نوافذ الحكمة

شعار المكتبة التي قامت بإعداد المجلة

تاريخ نشر هذه الدورية من المجلة: 17/ مارس/ 2026

للتواصل مع القائم على المكتبة: zaidadwan@gmail.com (زيد العدوان)

كلمة المحرر:

لا أريد أن أطيل في الكلام، فالإطالة ليست من طبعي، لكني لما رأيت الكتب الكثيرة المسجاة في مواقع الانترنت، ارتأيت أن أنشأ مجلة في مجال الروحانيات والأديان والأوكولت، لكي ترفد القارىء العربي بعلوم جديدة ومختلفة عن المألوف، فتكون مفيدة له.

كما تدور هذه المكتبة حول الترجمة، والتأليف، والتخليص، والشرح، فأحيانًا تكون هنالك مقالات مشروحة، وأحيانًا مقالات مترجمة، وأحيانًا مقالات تم تأليفها.

ومن الجدير بالذكر، أن المجلة هذه قائمة 100% على الذكاء الاصطناعي، فاليوم أمسى الذكاء الاصطناعي أداة هائلة من الممكن استغلالها في الترجمة، التأليف، الشرح...الخ من الأنشطة الكتابية، ولم يعد هنالك حاجة للقيام بالأعمال الكتابية الصغيرة التي أصبح الذكاء الاصطناعي يختصر الجهد والوقت علينا فيها.

كما أن المجلة تقوم على 70 صفحة، وهي تصدر أسبوعيًا، بمعدل 280 صفحة شهريًا.

ومما ينبغي قوله أن هذا العدد من المجلة ترجمة لكتاب (فايلوسوف مينا) وهو كتاب يوناني قديم ترجم للإنجليزية، ومن الإنجليزية ترجم للعربية ها هنا، والترجمة المعروضة في هذا العدد هي للمقدمة وللفصل الأول من الكتاب.

هذا وعلى الله توكلنا فبه التوفيق والمضي.

القائم على هذه المجلة الدورية

زيد العدوان

المقدمة

1 .النص، اكتشافه، نشره، وطبعاته:

تشبه قصة اكتشاف الكتاب المترجم هنا قصةً رومانسيةً، حتى أنها تبدو كزهرةٍ في حقلٍ جافٍّ ومغبرٍ من تراث الآباء. كانت هناك رسالةٌ قصيرةٌ تُدعى "فيلوسوفومينا" أو "الفلسفات" معروفةً منذ زمنٍ طويل، إذ وُجدت أربع نسخٍ مبكرةٍ منها في المكتبات البابوية وغيرها في روما وفلورنسا وتورينو. وقد أدّت العناوين الموجودة على هذه النصوص، بالإضافة إلى ملاحظةٍ في هامش إحداها، إلى نسبة الرسالة إلى أوريجانوس، وكانت طبعتها الأولى هي تلك التي نشرها فابريسيوس عام ١٧٠١ في لايبزيغ مع تعليقاتٍ من العالم غرونوفيوس. وكما سيتبين لاحقًا، فإنّها في حد ذاتها ليست ذات أهميةٍ كبيرةٍ للباحثين المعاصرين، إذ لا تُلقي ضوءًا جديدًا على تاريخ الفلسفة اليونانية أو طبيعتها، في حين أنها مُجمّعةٌ بشكلٍ أساسيٍّ من بعض تلك الملخصات للآراء الفلسفية السائدة في القرون الأولى من عصرنا، والتي تُعدّ أعمال ديوجين لايرتيوس وإيتيوس أشهرها. في عام ١٨٤٠، أُرسل مينويدس ميناس، وهو عالم يوناني مُتبحّر، من قِبل أبيل فيلمان، وزير التعليم العام آنذاك في حكومة لويس فيليب، في رحلة استكشافية إلى أديرة جبل آثوس، وعاد منها، من بين أشياء أخرى، بمخطوطة الكتب السبعة الأخيرة من هذه المجلدات. وبعد البحث، تبيّن أن هذه المخطوطة تضم الكتب من الرابع إلى العاشر شاملةً من العمل الأصلي، الذي كان النص الذي نشره فابريسيوس هو الكتاب الأول منه، وبالتالي لم يتبقَّ سوى الكتابين الثاني والثالث. ويُظهر ترقيم صفحات المخطوطة

أن الكتابين المفقودين لم يكونا جزءًا منها قط. لكن ملاحظات المؤلف[2] في نهاية الكتابين الأول والتاسع، وبداية الكتابين الخامس والعاشر[1]، تدفعنا إلى استنتاج أنه لو وُجدت هذه النصوص، لكانت قد تناولت أسرار وطقوس المصريين، أو بالأحرى اليونانيين الإسكندريين[2]، ولاهوت ونشأة الكون لدى الفرس والكلدانيين، والممارسات السحرية والتعاويذ البابلية. ورغم أهمية هذه النصوص من الناحيتين الأثرية والأنثروبولوجية، فربما لا داعي للمبالغة في رثائها. فالإشارات القليلة إليها في بقية العمل تُظهر أن المؤلف لم يكن لديه معرفة عميقة أو مباشرة بموضوعه، وأن المعلومات الشحيحة التي جمعها لم تكن إلا إضافةً لدعم فرضيته الرئيسية. هذا الأخير، الذي يُذكر باستمرار في جميع أنحاء الكتاب، هو أن المعتقدات والممارسات الخاصة بالغنوصيين وغيرهم من الهراطقة في عصره لم تكن نابعة من أي سوء فهم للكتب المقدسة، بل كانت مزيجًا من تلك الشائعة بين الوثنيين مع آراء الفلاسفة[3] حول أصل كل شيء.

لا يمكن توجيه اللوم نفسه بشأن قلة المعلومات إلى الكتب التي اكتشفها ميناس. يتناول الكتاب الرابع، الذي فُقدت أربع صفحات من بدايته، فنون العرافة كما مارسها العرافون والمنجمون والسحرة وغيرهم من الدجالين الذين اجتاحوا روما في القرون الثلاثة الأولى من عصرنا؛ ومع ذلك، فإن رواية المؤلف، التي يصعب تتبعها بسبب تلف النص، تُقدم لنا رؤية جديدة وغير متوقعة للخداع والتضليل الذي تمكنوا من خلاله من تضليل ضحاياهم. تتناول الكتب من الخامس إلى التاسع بالتفصيل آراء الهراطقة أنفسهم، وتختلف عن روايات علماء الهرطقة

السابقين من خلال الاستشهاد بإسهاب من الأدب الغنوصي الواسع النطاق [3]، والذي فُقد معظمه بالنسبة لنا. [4] وهكذا، يقدم لنا مؤلفنا مقتطفات من عمل يُسمى الإعلان العظيم، والذي نسبه إلى سيمون ماجوس، ومن عمل آخر يُسمى برواستي استخدمته طائفة بيراتا، ومن شرح سيث لصالح السيثيين، ومن باروخ لشخص يُدعى جوستينوس، وهو هرطقي غير معروف لنا حتى الآن، ومن عمل لكاتب مجهول ينتمي إلى الناساسيين أو الأوفيتيين، وهو في الأساس شرح غنوصي للأناشيد المستخدمة في عبادة سيبيل. [5] إلى جانب ذلك، توجد مقتطفات مطولة من مؤلفات باسيليديان وفالنتينيان، يُحتمل أن تكون من تأليف مؤسسي هاتين الطائفتين، وهي تُتيح لنا بلا شك فهمًا أعمق لعقائدهما مما كنا نعرفه سابقًا؛ بينما يحتوي الكتاب العاشر على ما يُفترض أنه مُلخص للعمل بأكمله.

مع ذلك، لا يُغطي هذا كل المعلومات الجديدة التي أتاحها لنا اكتشاف ميناس. ففي سياق سرد بدعة نويتوس، الذي رفض الاعتراف بأي فرق بين الأقنوم الأول والثاني من الثالوث، يشنّ مؤلفنا فجأة هجومًا عنيفًا على كاليستوس، وهو مسؤول رفيع في الكنيسة، واصفًا إياه بأنه عبد هارب اختلس أموال سيده، وسرق الأموال التي أودعتها لديه الأرامل وغيرهن من المنتمين إلى الكنيسة، وحُكم عليه بالسجن في المناجم من قِبل والي المدينة، ولم يُفرج عنه إلا بفضل مارشيا، محظية كومودوس.[6] كما اتهم أيضًا اتهم كاليستوس بالميل إلى بدعة نويتوس، وتشجيع التساهل في الأخلاق داخل الكنيسة بالسماح بزواج الأساقفة والكهنة وإعادة زواجهم، وبممارسة السرّ بين النساء غير المتزوجات. تكمن خطورة هذه التهمة في أن كاليستوس هذا لا

يمكن أن يكون إلا القديس والشهيد الذي يحمل الاسم نفسه، والذي خلف زيفيرينوس[4] في كرسي القديس بطرس حوالي عام 218، والذي يعرفه جميع زوار روما الحديثة من المقبرة التي لا تزال تحمل اسمه، والتي يذكر الكتاب الذي بين أيدينا أنه دُفن فيها على يد سلفه.[7] سيتم شرح هذه الاتهامات عند النظر في مؤلف الكتاب، ولكن تجدر الإشارة الآن إلى أنها تلقي ضوءًا غير متوقع تمامًا على التاريخ الداخلي للكنيسة الأولى.

مع ذلك، لم تكن هذه الحقائق واضحة للعيان في البداية. المخطوطة، التي كُتبت كما يبدو من بيانات النشر بخط يد مايكل المتهالك للغاية في القرن الرابع عشر، مليئة بالمحو والإضافات بين السطور، وتحتوي على العديد من الثغرات الخطيرة.[8] ولذلك، لكانت على الأرجح قد بقيت دون أن يلاحظها أحد في المكتبة الملكية في باريس التي أُودعت فيها، لولا أن وقعت هناك على عين بينين إيمانويل ميلر، وهو عالم آثار فرنسي كرس حياته لدراسة وفك رموز المخطوطات اليونانية القديمة. وبفضل عنايته وسخاء دار النشر الجامعية، نُسخت المخطوطة ونُشرت عام 1851 في أكسفورد، ولكن دون مقدمة أو شروح توضيحية، على الرغم من أن التعديلات المقترحة في النص كانت جميعها مدونة بعناية في أسفل كل صفحة.[9] قام العالمان الألمانيان ف. ج. شنايدوين ولودفيج دونكر بتصحيح هذه النواقص، حيث نشرا في غوتينغن بين عامي 1856 و1859 نصًا منقحًا مع شروح نقدية وتفسيرية وافية، بالإضافة إلى ترجمة لاتينية.[10] تأخر إتمام هذا النشر بسبب وفاة شنايدوين، التي حدثت قبل أن يتمكن من تجاوز الكتاب السابع، وتلا ذلك ظهور نص وترجمة مماثلة في باريس عام 1860 من قِبل الأب

كرويس، الذي كان آنذاك رئيسًا لإحدى الكليات في روما، والذي كرّس، كما يذكر في مقدمته، سنوات عديدة لدراسة هذا العمل.[11] ولأن طبعته تجمع أفضل ما في طبعة دونكر وشنايدوين، إلى جانب ثمرة عمل دؤوب ومتقن من جانبه،[5] وترجمة لاتينية تتفوق بشكل لا يُضاهى في وضوحها وإيجازها على طبعة المحررين الألمان، فهي الطبعة المستخدمة بشكل رئيسي في الصفحات التالية. ظهرت ترجمة إنجليزية بقلم القس ج. هـ. ماكماهون، مترجم سلسلة بون لجزء كبير من أعمال أرسطو، عام ١٨٦٨ في مكتبة كلارك لما قبل نيقية. لا يُمكن انتقادها كثيرًا من حيث الدقة اللغوية؛ ولكن قبل خمسين عامًا، لم تحظَ آثار الغنوصية بالاهتمام الذي حظيت به لاحقًا، ولعلّ المترجم، نتيجةً لذلك، لم يُسهم كثيرًا في مساعدة القارئ العادي على فهم مغزى المؤلف.

٢ .تأليف العمل:

حتى قبل اكتشاف ميناس، كانت الشكوك تُثار حول نسبة كتاب "الفلاسفة" إلى أوريجانوس. إن حقيقة أن المؤلف في مقدمته يتحدث عن نفسه كخليفة للرسل، وشريك في نعمة الكهنوت الأعظم، وحامٍ للكنيسة،[12] قد دفعت بالفعل العديد من الكتاب المتعلمين في القرن الثامن عشر إلى الإشارة إلى أن أوريجانوس، الذي لم يكن أسقفًا قط، لا يمكن أن يكون هو المؤلف، وأن إبيفانيوس، وديديموس الإسكندري، وأيتيوس كانوا من بين الأسماء التي نُسبت إليها.
وبمجرد نشر نص ميلر، أُعيد إحياء هذا الجدل، وتأثر بطبيعة الحال بالآراء الدينية والسياسية لأطرافه. وكان جاكوبي، في مجلة لاهوتية ألمانية، أول من أعلن أنه لا بد أن يكون من تأليف

هيبوليتوس، وهو معاصر لكاليستوس،[13] وقد أثبت هذا التصريح أنه بمثابة انفراجة كبيرة. كانت عقيدة عصمة البابا رائجةً آنذاك، فانتهز البارون فون بنسن، سفير بروسيا في بلاط القديس يعقوب، الفرصةَ على الفور لبذل كل ما في وسعه لدحضها. ففي كتابه "هيبوليتوس وعصره" (1852)، أكد إيمانه بنظرية جاكوبي، واستند إلى إساءة كاليستوس في الكتاب التاسع من النص المكتشف حديثًا، ليخلص إلى أن سيادة أساقفة روما كانت تُنكر فعليًا حتى في القرن الثالث.[6] ثم أعقب ذلك كريستوفر وردزورث، أسقف لينكولن الشهير، بدراسةٍ علميةٍ رفض فيها استنتاج فون بنسن، ولكنه أقرّ بمقدماته الرئيسية؛ وبعد ذلك بقليل، ظهر الدكتور دولينجر، الذي سيُثبت لاحقًا أنه المعارض الرئيسي للمزاعم البابوية، بعملٍ يدعم الموقف نفسه. لم يكن هناك من تجرأ على الدفاع عن نسبة الكتاب إلى أوريجانوس، بل كان هناك الكثير ممن لم يؤمنوا بصحة نسبة الكتاب إلى هيبوليتوس. من بين الألمان، أعلن فيسلر وباور نيابة عن كايوس، وهو قسيس منحه فوتيوس في القرن التاسع لقب "أسقف الأمم" الغريب، كمؤلف؛ من الإيطاليين، نسبه دي روسي إلى ترتليان، وأرميليني إلى نوفاتيان؛ ومن الفرنسيين، صوّت الأب جالابير في أطروحة دكتوراه لصالح ترتليان؛ بينما اعتقد كرويس، الذي ترجم العمل لاحقًا، أن مؤلفه إما كايوس أو ترتليان.[14] لحسن الحظ، لا يوجد الآن سبب لإعادة فتح الجدل، والذي يمكن الاستنتاج أنه انتهى بوفاة ليبسيوس، آخر معارض جاد لنسبة العمل إلى هيبوليتوس. المطران دوشين، الذي يُفترض أنه يتحدث في مثل هذه المسألة بصوت أغلبية علماء طائفته، في كتابه "التاريخ القديم للكنيسة"[15] يقبل الرأي القائل بأن

هيبوليتوس هو مؤلف كتاب "الفلسفة"، ويعتقد أنه تصالح مع الكنيسة تحت اضطهاد ماكسيمين.[16] لذا، يمكننا القول إن نسبة الكتاب إلى هيبوليتوس باتت مُسلَّمة من جميع الأطراف.

ولا بد من الإشارة إلى ما هو معروف عن هيبوليتوس هذا. فقد ورد ذكر قديس وشهيد بهذا الاسم في التقويم الروماني، واكتُشف تمثال له جالسًا في روما في القرن السادس عشر، نُقشت على ظهر كرسيه قائمةٌ بأعماله، يُزعم في نصنا أن أحدها من تأليف كاتبه.[7] وقد ذُكر لأول مرة على لسان يوسابيوس، الذي وصفه بأنه "أسقف كنيسة أخرى" غير كنيسة بوسترا التي كان يتحدث عنها؛[18] ثم على لسان ثيودوريت، الذي وصفه بأنه "هيبوليتوس القديس، الأسقف والشهيد"؛[19] وأخيرًا على لسان برودنتيوس، الذي ذكر أنه اعتنق النوفاتية، ولكنه في طريقه إلى الاستشهاد عاد إلى أحضان الكنيسة وحثّ أتباعه على فعل الشيء نفسه.[20] لدينا العديد من الكتابات، معظمها مجزأة، تُنسب إليه، بما في ذلك، من بين أمور أخرى، كتابٌ عن دورة الفصح يُشار إليه في التمثال المذكور آنفًا، ورسالةٌ ضد نويتوس استخدمها إبيفانيوس لاحقًا، وكتاباتٌ أخرى عن المسيح الدجال ودانيال وسفر الرؤيا، وكلها تُظهر نزعةً ألفيةً واضحة. في المخطوطات التي وردت فيها بعض هذه الكتابات، يُشار إليه بلقب "أسقف روما"، ويبدو أن هذا كان لقبه المعتاد بين الكُتّاب اليونانيين، على الرغم من أنه يُدعى في مواضع أخرى "رئيس أساقفة"، وبألقاب أخرى. من هذه الحقائق وغيرها، يخلص دولينجر إلى أنه كان في الواقع بابا مُضادًا أو أسقفًا منشقًا نصب نفسه في وجه سلطة كاليستوس، وهذا

أيضًا ما يقبله المونسنيور. يتفق دوشين مع دولينجر على أن الانشقاق الذي أحدثه استمر خلال فترة حكم خلفاء كاليستوس، أوربانوس وبونتيانوس، ولم ينتهِ إلا بنفي الأخير مع هيبوليتوس إلى مناجم سردينيا.[21] ورغم أن الأدلة التي يستند إليها هذا الرأي ليست قوية، إلا أنه تفسير معقول للمسألة برمتها؛ ويصبح هذا التفسير أكثر ترجيحًا إذا اخترنا الاعتقاد - مع أنه لا يوجد دليل قاطع على ذلك - بأن هيبوليتوس كان رئيسًا للجماعة المسيحية الناطقة باليونانية في روما، بينما كان عدوه كاليستوس يرأس الجماعة اللاتينية الأكثر عددًا. في هذه الحالة، يُرجّح أن يُنسى الانشقاق في زمن الاضطهاد، وأن تكون فرص بقائه أقل من الانشقاقات الأكثر خطورة في العصور اللاحقة؛ بينما يُفسّر هذا بشكل مُرضٍ تصرف السلطات الإمبراطورية[8] في إرسال رئيسي الجماعتين إلى الأشغال الشاقة في الوقت نفسه. بفعلهم هذا، لا شك أن ماكسيمين أو مستشاريه الوثنيين اعتبروا أنهم يوجهون ضربة مزدوجة للكنيسة الفتية آنذاك.

3 .مصداقية هيبوليتوس:

بافتراض أن مؤلفنا هو هيبوليتوس، أسقف روما المنشق من حوالي عام 218 إلى 235، يجب علينا الآن أن ننظر في مدى مصداقية أقواله. وقد أثار هذا السؤال لأول مرة الراحل الدكتور جورج سالمون، عميد كلية ترينيتي في دبلن، الذي كان طوال حياته باحثًا شغوفًا بالغنوصية وتاريخ الكنيسة خلال القرون الأولى. أثناء دراسته لنصنا، لفت انتباهه بشدة تكرار تشبيه المغناطيس الذي يجذب الحديد إليه والعنبر الذي يجذب القش في سرد أربع طوائف مختلفة، ما دفعه إلى التفكير في نظرية مفادها أن هيبوليتوس قد تم خداعه من قبل مزور باعه عددًا من

الوثائق التي زُعم أنها كتب سرية للهراطقة، ولكنها في الحقيقة من تأليف المزور نفسه.[22] تبنى الراحل هاينريش ستيهلين هذه النظرية لاحقًا، ونشر أطروحة حاول فيها، بالطريقة الألمانية الشاقة، أن يُبين، من خلال مقارنة جميع المقاطع المختلفة تقريبًا التي تتشابه في الصياغة، أن الوثيقة برمتها مشكوك فيها.[23] وسيتم تناول المقاطع المختلفة التي اعتمد عليها في الحواشي عند ورودها، وقد يكفي هنا ذكر رأي السيد أوجين دي فاي، أحدث كاتب في هذا الشأن، بأن نظرية سالمون وستيهلين تتجاوز الحقائق بكثير.[24] وكما يشير السيد دي فاي، فإن الوثائق المختلفة المقتبسة في العمل تختلف اختلافًا كبيرًا عن بعضها البعض في الأسلوب والمضمون، بحيث يصعب اختلاق أو تقليد أي وثيقة أخرى.

كان تزويرها يتطلب مزورًا يتمتع بمهارة ومعرفة تفوق القدرات البشرية. يُضاف إلى ذلك أن مجرد تكرار العبارات التي جمعها ستيهلين بعناية فائقة هو ما يتجنبه حتى أقل المزورين مهارة، ومن المؤكد أنه سيثير حذر أكثر المشترين سذاجة. كما أن بعض العبارات التي اشتكى منها سالمون وستيهلين، على الأقل، يمكن إثبات أنها لم تأتِ من المؤلف الغنوصي المذكور، بل من هيبوليتوس نفسه، وأن عبارات أخرى موجودة في الأعمال الغنوصية التي وصلت إلينا بصيغة قبطية. هذه الوثائق القبطية، كما بين الكاتب في موضع آخر، مرتبطة ببعضها ارتباطًا وثيقًا لدرجة أنه لا بد من اعتبارها جميعًا صادرة عن مدرسة واحدة. لم يكن هيبوليتوس على دراية بها، وإلا لكان قد اقتبسها بالتأكيد في العمل الذي بين أيدينا. ولا للمزوّر المزعوم، وإلا لكان قد استغلّها على نحوٍ أكبر. لذا، لا بدّ لنا من افتراض أن المقاطع المشتركة بين هذه

النصوص ونصوصنا تستند إلى مصدرٍ مشترك، لا يُمكن أن يكون إلا كتاباتٍ أصلية لهراطقةٍ سابقين. وعليه، يجب أن نتفق مع السيد دي فاي على رفض نظرية سالمون-شتاهلين للتزوير.

لكن إذا انتقلنا من هذا إلى أقوال هيبوليتوس التي يُمكننا التحقق منها من مصادر أخرى، فسنجد أسبابًا عديدة للتشكيك، ليس في حسن نيّته أو نيّة مُخبريه، بل في دقة أحدهم أو الآخر. وهكذا، في سرده لمبادئ الفلاسفة، يُغيّر أو يُسيء فهم مصادره مرارًا وتكرارًا، كما في قوله إن طاليس افترض أن الماء هو النهاية كما كان بداية الكون،[27] أو أن "زراطاس"، كما يُسمّي زرادشت، قال إن النور هو أب الكائنات والظلام هو أمها،[28] وهي أقوال تتعارض تمامًا مع ما نعرفه عن آراء هؤلاء المعلمين. كذلك، في الكتاب الأول، يجعل إمبيدوكليس يقول إن كل الأشياء تتكون من نار، وستتحول إلى نار، بينما في الكتاب السابع، يقول إن إمبيدوكليس أعلن أن عناصر الكون ستة[10]، وأن النار، وهي إحدى الأداتين اللتين تُغيّرانها وتُرتبانها، هي واحدة منها فقط.[29] ومرة أخرى، في الكتاب التاسع، يقول إنه قد شرح بالفعل آراء هيراقليطس، ثم يشرع في وصف مجموعة مختلفة تمامًا من المبادئ عن تلك التي نسبها إليه في الكتاب الأول؛ بينما ينسب في الكتاب العاشر رأيًا آخر إلى هيراقليطس.[30] أو يمكننا أن نأخذ على سبيل المثال نظام التنجيم أو العرافة باستخدام "العدد الفيثاغورسي"، حيث يقول إن أساتذته يدّعون التنبؤ بالفائز في مسابقة ما عن طريق التلاعب بالقيم العددية لأحرف أسماء المتنافسين، ثم يقدم أمثلة، بعضها ينجح والبعض الآخر لا ينجح وفقًا للقاعدة التي وضعها.

كذلك، في اقتباساته غير الموثقة من سيكستوس إمبيريكوس، يشوه نصه لدرجة تجعله غير

مفهوم لنا لولا قدرتنا على استعادته من كلمات سيكستوس نفسه. لذا، مرة أخرى، في روايته عن خفة اليد وغيرها من الخدع المسرحية، حيث يقول، ولا شك في صدقه، إن السحرة كانوا يخدعون من يستشيرونهم، فإن روايته مكتوبة أو منسوخة بإهمال شديد، بحيث لا يمكن فهمها إلا من خلال قراءة ما بين السطور، وحتى حينها، فإنها تروي عجائب أكثر مما تشرح.[31] قد يعود بعض هذا الخطأ إلى أخطاء في النسخ وإعادة النسخ من قبل النساخ الذين لم يفهموا ما يكتبون؛ ولكن في نهاية المطاف، تبقى مجموعة من الأخطاء التي لا يمكن تفسيرها إلا بإهمال كبير من جانب المؤلف. ومع ذلك، وكأنه يريد أن يُظهر أنه قادر على بذل الجهد لو أراد، فإن الاقتباسات من الكتاب المقدس منقولة بشكل صحيح في مجملها، ولا تُظهر سوى اختلافات طفيفة عن النسخ المتداولة. وبالتالي، عندما تحدث مثل هذه الاختلافات (والتي سنشير إليها لاحقًا كلما وردت)، يجب أن نفترض أنها ليست من عمل هيبوليتوس، بل من عمل الهراطقة الذين اقتبس منهم، والذين لا بد أنهم أخذوا حريات في العهد الجديد مشابهة لتلك التي أخذها ماركيون.[11] وعندما ينسخ هيبوليتوس إيريناوس، سواءً مع الإشارة إليه أو بدونها، فإن نسخته دقيقة للغاية، وتتفق مع النسخة اللاتينية للأصل بشكل أوثق من النسخة اليونانية لإبيفانيوس. يبدو إذن أن أقوال مؤلفنا، وإن لم تكن غير جديرة بالتصديق بأي حال من الأحوال، إلا أنها تتطلب في كثير من الحالات فحصًا دقيقًا قبل قبولها دون تردد[32].

4 .تأليف العمل:

في هذه الظروف، ونظرًا للتناقضات الواضحة بين الأقوال الواردة في الجزء الأول من النص وما يُزعم أنه تكرار لها في الجزء الأخير، فقد برز التساؤل بشكل طبيعي حول ما إذا كانت الوثيقة التي بين أيدينا قد كُتبت للنشر بصيغتها الحالية. لم يُشر إليها أو يقتبس منها بالاسم من قبل أي مؤلف لاحق، وعلى الرغم من أن الحجة من الصمت على الرغم من أن هذا النص أثبت عمومًا عدم مصداقيته في مثل هذه الحالات، إلا أن هناك بعض الظروف التي تبدو وكأنها تمنحه قوة غير عادية. لم يكن التردد في الاستشهاد بعمل كاتب منشق أو هرطقي هو ما أدى إلى تجاهل هذا العمل، فإبيفانيوس، بعد قرن ونصف، يصنف هيبوليتوس مع إيريناوس وكليمنت الإسكندري كأحد الأشخاص الذين استقى منهم معلوماته،[33] وثيودوريت، مع استخدامه لاحقًا لبعض المقاطع التي تتطابق إلى حد كبير مع بعض المقاطع في الكتاب العاشر من نصنا،[34] إلا أنه يُقر، كما ذُكر سابقًا، بادعاء هيبوليتوس الأسقفية والاستشهاد. لكن المقاطع في كتابات ثيودوريت التي تبدو وكأنها تقتبس من هيبوليتوس، وإن كان ذلك محتملاً، ليست بالضرورة من العمل الذي بين أيدينا. يخبرنا مؤلف هذا الكتاب في الجزء الأول أنه قد شرح سابقًا [35] مبادئ الهراطقة "بشكل معقول"، دون الكشف عن جميع أسرارهم، ولذلك، ربما يكون إبيفانيوس وثيودوريت قد استعارا من عمل سابق مماثل. وقد ظن بعض الكتّاب، بمن فيهم سالمون [36]، أن هذا العمل السابق لمؤلفنا موجود في الرسالة المجهولة "ضد جميع الهراطقة" التي تُلحق عادةً بأعمال ترتليان [12] [37]. ومع ذلك، فإن هذه الرسالة، وهي قصيرة للغاية، لا تحتوي على أي شيء يمكن تحريفه ليصبح كلمات مشتركة بين نصنا ونص

ثيودوريت، ولذلك، يمكننا أن نجزم بثقة أن ثيودوريت قد اقتبسها من نصنا لولا أنه لم يذكر مصدرها في أي موضع. قد يكون هذا مجرد مثال آخر على اقتباس غير مُعترف به لأفكار رائجة في عصره، لولا أن ثيودوريت قد أشاد بهيبوليتوس بالعبارات المُثنية المذكورة آنفًا، وبالتالي، يُفترض أنه كان سيسعده ذكر هذه السلطة الموثوقة كمصدر لمعلوماته. ولأنه لم يفعل، يُمكننا ربما قبول الاستنتاج الذي توصل إليه كرويس ببراعة في دراسة نُشرت بعد فترة وجيزة من ظهور نص ميلر،[38] ونقول معه إن ثيودوريت لم يكن يعلم بوجود المقاطع المذكورة في أي من مؤلفات هيبوليتوس. في هذه الحالة، ولأن ما ورد في الكتاب التاسع يمنعنا من افتراض أن نصنا نُشر دون ذكر اسم المؤلف أو باسم مستعار، فإن الاستنتاج الطبيعي هو أن كلاً من هيبوليتوس وثيودوريت استقيا من مصدر مشترك.

ولا شك في ماهية هذا المصدر. يتحدث مؤلفنا أكثر من مرة عن "الشيخ المبارك إيريناوس"، الذي يقول إنه دحض الهرطقي ماركوس بقوة كبيرة، ويلمح إلى أن الطاقة والقوة التي أظهرها إيريناوس في مثل هذه الأمور قد اختصرت عمله الخاص فيما يتعلق بالمدرسة الفالنتينية بشكل عام.[39] كما يذكر فوتيوس، الذي كتب كما قيل في القرن التاسع، عملاً لهيبوليتوس ضد الهرطقات، والذي يدين بالكثير لتعليم إيريناوس. جاء في النص ما يلي:

»قُرِئَتْ كُتيّبةٌ لهيبوليتوس. كان هيبوليتوس تلميذًا لإيريناوس. لكنّ هذه الكُتيّبة كانت عبارةً عن تجميعٍ لردودٍ على 32 بدعة، مُشيرًا إلى الدوسيثيين كأولها، ومُتضمنًا تلك البدعات حتى نويتوس والنويتيين. ويقول هيبوليتوس إنّ هذه البدعات قد خضعت لردودٍ من إيريناوس في

حواراتٍ أو محاضرات. ويقول إنه قام بتجميع هذه الردود، مُقدّمًا مُلخّصًا لها. ومع ذلك، فإنّ الصياغة واضحةٌ ومُوقّرةٌ وبسيطة، على الرغم من أنه لا يلتزم بالأسلوب الأتيكي. لكنّه يقول بعض الأمور الأخرى التي تفتقر إلى الدقة، وأنّ رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين لم تكن من تأليفه«.

وقد اعتبر سالمون وآخرون أنّ هذه الكلمات تصف رسالة «ضد جميع البدعات». ومع ذلك، لا تحتوي هذه الرسالة على اثنتين وثلاثين بدعة، بل سبع وعشرين، وتبدأ بسيمون الساحر لتنتهي ببراكسياس الذي كتب ترتليان ضده. كما أنها تشير إلى هرطقي آخر يُدعى بلاستوس، الذي لم يذكره إيريناوس ولا مؤلفنا، كما لم تذكر شيئًا عن نويتوس أو الرسول بولس، شأنه شأن براكسياس. صحيح أنها تذكر في البداية "دوسيثيوس السامري"، ولكن فقط لتؤكد أن المؤلف يعتزم التزام الصمت بشأنه وبشأن اليهود، و"التوجه إلى أولئك الذين أرادوا تحريف الإنجيل"، وأولهم، كما يقول، هو سيمون الساحر.[41] أما بالنسبة للردود، فلا تحتوي الرسالة على ما يشبه الرد، مما دفع مؤيدي هذه النظرية إلى افتراض أنها حُذفت اختصارًا. ولا يتفق هذا النص بتاتًا مع نصنا في وصفه لعقائد وممارسات البدع التي يتناولها النصان معًا، مثل سيمون وباسيليدس والسيثياني وغيرهم، والاختلافات كبيرة جدًا بحيث لا يمكن تفسيرها بافتراض أن مؤلف النص اللاحق كان يُدرج فيه معلومات أحدث فحسب[42].

من جهة أخرى، يتفق وصف فوتيوس إلى حد كبير مع نصنا، الذي يحتوي على واحد وثلاثين بدعة إجمالًا، أو اثنين وثلاثين إذا أضفنا، كما يطلب منا المؤلف، تلك التي نسبها إلى كاليستوس. ومن بين هذه البدع، تُعد بدعة نويتوس[14] العشرين.

الكتاب الثامن والعشرون، ويليه كتابات الإلخسايين والإسينيين والفريسيين والصدوقيين فقط. هؤلاء الأربعة الأخيرون أقدم بكثير من أيٍّ من المذكورين في بقية العمل، وقد بدا ثلاثة منهم لمؤلف الرسالة الأخيرة المذكورة ليس هرطقات على الإطلاق، بينما لم يصف الرابع، ولا يوجد سبب واضح لوضعهم بعد الهرطقات اللاحقة للمسيحية وليس قبلها. الجزء الأول من ملخص المعتقدات اليهودية في الكتاب العاشر ممزق، وربما كان يحتوي على إشارة إلى دوسيثيوس، الذي ورد اسمه عند يوسابيوس وكتاب آخرين،[43] باعتباره سلفًا لسيمون الساحر، وشخصًا لم يؤمن بوحي الأنبياء اليهود. لذا، فإن المكان الطبيعي لهذه الطوائف اليهودية والسامرية، وفقًا للتسلسل الزمني، هو في بداية القائمة لا في نهايتها، وإذا جاز لنا وضعها هناك وإعادة اسم دوسيثيوس إلى القائمة، فسنحصل على اثنتين وثلاثين بدعة، تبدأ بدوسيثيوس وتنتهي بنويتوس. وسنعود لاحقًا إلى سبب تسمية فوتيوس لنصنا بـ"بيبليداريون" أو "كتيب."

هل ثمة الآن ما يدعو للاعتقاد بأن نصنا مبني على ملخص للمحاضرات كما ذكر فوتيوس أن هيبوليتوس قد ألقاها؟ أحد الأسباب المقنعة هو التقسيم غير المريح وغير العملي للكتب، والتي تبدو في كثير من الأحيان وكأنها رُتبت لتشغل فترات زمنية متساوية في الإلقاء. ومن بين

العيوب الأخرى المقدمات والتلخيصات غير الضرورية والمملة التي تبدأ وتنتهي بها أوصاف الفلسفات والممارسات الدجالية والهرطقات، والتي تبدو وكأنها أُقحمت فقط لجذب انتباه الجمهور المخاطب شفهيًا. فعلى سبيل المثال، في سرد بدعة سيمون الساحر، يبدأ المؤلف بقصة مطولة عن ليبي علّم الببغاوات أن تُعلن ألوهيته، ولا صلة لهذه القصة بقصة سيمون إلا أن هيبوليتوس يؤكد، كما فعل يوستينوس الشهيد، أن سيمون أراد من أتباعه أن يعتبروه الكائن الأسمى.[44] وكذلك يبدأ الكتاب التالي بقصة أوديسيوس والحوريات[45] المبتذلة كمقدمة لمبادئ باسيليدس، والتي لا تربطها بها أي صلة[15] على الإطلاق. ويبدو أن هذا كان يهدف إلى جذب انتباه الجمهور لحثهم على إيلاء المزيد من الاهتمام للتفاصيل المعقدة نوعًا ما التي تليها. في حالات أخرى، يضع في بداية أو نهاية الكتاب ملخصًا مفصلاً أو مختصرًا للكتب السابقة، خشية أن ينسى المستمعون ما قاله سابقًا، كما ذكر في إحدى المرات.[46] هذه حيلٌ معتادةٌ للمحاضر، لكن ربما يكون المثال الأبرز هو تلك النهايات التي تُشير إلى ما سيأتي مباشرةً، والتي لا يمكن أن تكون إلا إعلاناتٍ مسبقةٍ عن موضوع المحاضرة التالية. وهكذا، في نهاية الكتاب الأول، يعد بشرح الطقوس الصوفية[47]، وهو وعدٌ لم يتحقق بالنسبة لنا في غياب الكتابين الثاني والثالث؛ وفي نهاية الكتاب الرابع، يخبرنا أنه سيتناول تلاميذ سيمون وفالنتينوس[48]؛ وفي نهاية الكتاب السابع، أنه سيفعل الشيء نفسه مع الدوسيتيين[49]؛ وفي نهاية الكتاب الثامن، أنه سينتقل إلى بدعة نويتوس.[50] في أيٍّ من هذه الحالات، لم يذكر

المؤلف سوى أولى البدع التي سيتناولها في الكتاب التالي، والتي كان بإمكان القارئ اكتشافها بنفسه بتقليب الصفحة، أو بالأحرى بإلقاء نظرة خاطفة أسفل المخطوطة.

ومرة أخرى، ثمة تكرارات في نصنا يمكن التغاضي عنها من قِبَل مُحاضر لا يتوقع، إن كان حكيمًا، أن يكون مستمعوه على دراية تامة بكل ما قاله في محاضراته السابقة، بل قد يجد أن أفضل طريقة لترسيخ المعلومات في ذاكرتهم هي تكرارها مرارًا وتكرارًا؛ لكنها غير مقبولة بتاتًا من كاتب يستطيع أن يُحيل قرّاءه بشكلٍ أكثر فائدة إلى أقواله السابقة. ومع ذلك، نجد مؤلفنا في الكتاب الأول يُقدّم لنا ما يُفترض أنه تعليم فيثاغورس حول كون الموناد عضوًا ذكريًا، والدایاد عضوًا أنثويًا، وهكذا حتى العشري، الذي يُفترض أنه كامل.[51] يُعاد تناول هذا الموضوع بالتفصيل في الكتاب الرابع فيما يتعلق بفن الحساب[52]، ثم مرة أخرى في الكتاب السادس حيث يُستخدم كأداة لتسليط الضوء على بدعة فالنتينيوس[53]. وينطبق الأمر نفسه[16] على "المقولات" أو أعراض الجوهر التي ينسبها هيبوليتوس في موضع ما إلى فيثاغورس، مع أنها مطابقة لتلك التي وضعها أرسطو في كتابه "الأورغانون". فهو ينسبها بحق إلى أرسطو في الكتاب الأول، لكنه ينسبها إلى الفيثاغوريين في الكتاب السادس، ثم يعيدها إلى أرسطو في الكتاب السابع.[54] وهنا خطأ قد يقع فيه محاضر نتيجة زلة لسان، وليس كاتبًا يدّعي الدقة أو الجدية.

إضافة إلى ذلك، ثمة بعض الأدلة المباشرة على أن نصنا كان محاضرة. ففي تعليقاته على نظام جوستينوس، الذي يربطه بالأوفيتيين، يقول مؤلفنا: "مع أنني قد التقيت بـ «يا أحبائي، لقد

صادفتُ بدعًا كثيرة، ولكن لم أصادفَ أشدَّ شرًا من هذه». كلمة «أحبائي» هنا بصيغة الجمع، وهي العبارة التي يستخدمها متحدث اللغة اليونانية في محاضرة يلقيها على فصل دراسي أو مجموعة من التلاميذ أو المتعلمين.[55] لا أعتقد أن هناك أي مثال على استخدامها في كتاب. في موضع آخر، يقول إن «خطابه» أثبت فائدته، ليس فقط في دحض الهراطقة، بل في مكافحة الاعتقاد السائد بالتنجيم؛[56] وعلى الرغم من أن هذه الكلمة قد يستخدمها مؤلفون آخرون فيما يتعلق بالكتابات، إلا أنه من غير المرجح أن يكون هيبوليتوس قد استخدمها بهذا المعنى، إذ يشير في كل مكان ممكن إلى «كتبه» السابقة. لذا، ثمة ما يدعو للاعتقاد بأن جزءًا من هذا العمل قد ظهر أولًا منطوقًا لا مكتوبًا.

قد يصعب تحديد هذا الجزء بدقة متناهية، لكن ثمة دلائل كثيرة تشير إلى أن العمل بصيغته الحالية لم يُكتب دفعة واحدة. في الكتاب الأول، يُعرب المؤلف عن نيته في نسب كل بدعة إلى تأملات فيلسوف أو مدرسة فلسفية معينة.[57] إلا أنه، بدلًا من ذلك، يقارن فالنتينوس بفيثاغورس وأفلاطون، وباسيليدس بأرسطو، وسيردو وماركيون بإمبيدوكليس، وهرموجينس بسقراط، ونويتوس بهيراكليتوس، تاركًا جميع معلمي الأوفيت، وساتورنيلوس،[17] وكاربوقراط، وسيرينثوس، وغيرهم من مؤسسي المدارس، دون ربط أي فيلسوف بهم. علاوة على ذلك، في نهاية الكتاب الرابع، يُشير المؤلف أكثر من مرة إلى بعض أوجه التشابه المفترضة في الآراء المرتبطة باسم... يتناول فيثاغورس، في كتابه، أولئك الذين وضعوا أسس تسمية الهرطقات السيمونية والفالنتينية، ويختتم بالقول إنه يجب عليه الانتقال إلى مذاهب هذه

الأخيرة.[58] ولكن قبل ذلك، يُقحم الكتاب الخامس الذي يُخصص بالكامل للأوفيين، أو عابدي الثعبان، والذين لا يحاول أن يُنسب إليهم أصلًا فلسفيًا. وفي الكتاب السادس، يُوفي بوعده في الكتاب الرابع بالخوض مطولًا في مذاهب سيمون وفالنتين وأتباع الأخير، وفي الكتاب السابع يأخذنا على نفس المنوال عبر مذاهب باسيليدس وميناندر وماركيون وخلفائه، وكاربوقراطيس وسيرينثوس والعديد من الهراطقة الأقل شهرة. ويتناول الكتاب الثامن بالطريقة نفسها طائفة يُسميها الدوسيتيين، ومونويموس العربي، وتاتيان، وهيرموجينيس، وآخرين. وفيما يتعلق بمعلمي الأوفيت، سيمون وباسيليدس، فإنه يُقدم لنا، كما فعل سابقًا كما ذُكر سابقًا، استعان إيريناوس بمقتطفات من وثائق جديدة تمامًا بالنسبة لنا، ولم يستخدمها إيريناوس بالتأكيد، بينما أضاف إلى قائمة البدع التي وصفها سلفه طوائف الدوسيتيين والمونويموس

والكوارتوديسيمانس. وفي جميع البدع الأخرى حتى الآن، اتبع رواية إيريناوس حرفيًا تقريبًا، وبدقة تمكّننا من استعادة جزء كبير من النص اليوناني المفقود لذلك الأب. مع ذلك، يطرأ تغيير مع الكتاب التاسع. إذ يضع في اعتباره النية المُعبر عنها في الكتاب الأول، فيبدأ هنا بملخص لتعاليم هيراقليطس الغامض، التي لم يدّعِ أحد فهمها بعد، ثم يشرع في استنتاج بدعة نويتوس منها. وهذا يمنحه الفرصة للهجوم الشرس على منافسه كاليستوس، الذي ينسب إليه تعديلًا على بدعة نويتوس، ثم، كما ذُكر، ينغمس في وصف طائفة الإلخيسائيين، الذين كانوا آنذاك فقط وصل مؤخرًا إلى روما، ويقتبس من يوسيفوس دون توثيق، مع بعض التحريف، روايته عن انقسام اليهود إلى ثلاث طوائف: الفريسيين والصدوقيين والإسينيين. كانت بدعة نويتوس هي ما يُعرف بالهرطقة الأبوية، نسبةً إلى اعترافه بأن الآب تألم على الصليب. ورغم أنه يرى

عناصر غنوصية في بدعة الإلخسايين، فلا شك أن هؤلاء "الهراطقة" المذكورين، الذين كان مبدأهم الأساسي هو وصفة المعمودية المتكررة لجميع الخطايا والأمراض، كانوا مرتبطين بطائفة المعمدانيين غير المسيحية، أو المغتاسيلية، أو "الغاسلين"، الذين هم في الوقت نفسه غير مسيحيين، ولا يزالون موجودين بالقرب من نهر دجلة بين بغداد والبصرة. يبقى سبب إضافته إلى هذه المذاهب مذاهب اليهود غير واضح، إذ كان من الأنسب، كما ذُكر، أن يكون ذلك في بداية الكتاب. التفسير هو أنه كان هنا يستأنف دورة تعليمية بالمحاضرات كان قد توقف عنها سابقًا، ولذلك كان مضطرًا نوعًا ما إلى إطالة الحديث فيها.

يبدو الكتاب العاشر، للوهلة الأولى، قادرًا على الإجابة عن العديد من التساؤلات التي يتبادر إلى ذهن كل قارئ وصل إلى هذه المرحلة. يبدأ الكتاب، وفقًا للعادة المذكورة آنفًا، بالقول إن المؤلف قد اجتاز الآن "متاهة البدع"، وأن تعاليم الحقيقة لا تُوجد لا في فلسفات الإغريق، ولا في أسرار المصريين، ولا في طقوس الكلدانيين أو المنجمين، ولا في خرافات السحر البابلي.[60] وهذا يربط بينه وبين مع تقارب معقول مع الإشارة الواردة في الكتاب الرابع إلى أفكار الفرس والبابليين والمصريين والكلدانيين، مع استثناء الأمة الأولى فقط من النص. ثم يتابع قائلاً إنه "بعد أن جمع آراء جميع حكماء اليونانيين في أربعة كتب، وآراء الهراطقة في خمسة"، سيقدم ملخصًا لها. يُلاحظ أن هذا يتناقض تمامًا مع الافتراض القائل بأن الكتابين الثاني والثالث المفقودين احتوا على مذاهب البابليين، إذ يقول الآن إنهما اقتصرا على مذاهب اليونانيين فقط. كان من المتوقع أن يوضح الملخص التالي هذا الالتباس، لكنه للأسف لم يفعل

ذلك. بل إنه يقدم ملخصًا جيدًا لما ورد في الكتب من الخامس إلى التاسع شاملةً فيما يتعلق بالهراطقة الرئيسيين، بحيث يمكّننا في موضع أو موضعين من تصحيح العبارات المشكوك فيها وسد الثغرات الموجودة في الكتب السابقة. مع ذلك، أغفل الملخص ذكر بدع ماركوس، وساتورنيلوس، وميناندر، وكاربوقراطيس، والنيكولايين، والدوسيتيين، والكوارتوديسيمانس، والإنكراتيين، والطوائف اليهودية، وربما تُعتبر قائمة الإغفالات طويلة جدًا بحيث لا يمكن تفسيرها بمجرد الإهمال. لكن عندما يتناول الملخص الكتب السابقة، يصبح التناقض بين الملخص والوثائق المُلخّصة أكثر إثارة للدهشة. فمن بين الفلاسفة، أغفل تلخيص آراء فيثاغورس، وإمبيدوكليس، وإكفانتوس، وهيبو، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطو، والرواقيين، والأكاديميين، والبراهمة، والدرويديين، بينما ذكر آراء هيباسوس، وأوسيليوس لوكانوس، وهيراكليتوس البنطي، وأسكليبياديس، الذين لم يُذكروا في أي من نصوص الكتاب الأول التي وصلت إلينا. أما فيما يتعلق بمبادئ وممارسات الفرس والمصريين وغيرهم، والتي يُفترض، استنادًا إلى ما ورد في بداية الكتاب الخامس، أنها ذُكرت في الكتابين الثاني والثالث، فلم يُذكر عنها شيءٌ إضافي هنا، ومن خلال جدول المحتويات الصغير الذي يُستهل به الكتاب العاشر، كما هو الحال مع الكتب الأخرى، يتضح أنه لم يكن هناك أي نية للتطرق إليها. قد يكون من الممكن إيجاد أسباب وجيهة لهذا الإغفال الأخير لو كان مُنفردًا؛ ولكن عند ربطه بالاختلافات بين الملخص والنص الأصلي فيما يتعلق بالكتاب الأول، فإن الاستنتاج الوحيد الذي يُفسر جميع الحقائق هو أن كاتب الملخص لم يكن مُلمًا بالكتب الأربعة الأولى.

وقد دفع هذا بعض النقاد إلى استنتاج أن الملخص من تأليف شخص آخر. لا يوجد في الأعراف الأدبية لتلك الحقبة ما يُجبرنا على رفض هذا الافتراض، وقد ذُكرت حالات مشابهة. إلا أن أسلوب الكتابة يُعارض هذا الافتراض، ومن غير المرجح أن يكون كاتب الملخص، لو كان شخصًا آخر غير هيبوليتوس، قد تناول خلاف هيبوليتوس الشخصي مع كاليستوس. ومع ذلك، في نص الكتاب العاشر الذي بين أيدينا، تتكرر تهمة الهرطقة الموجهة ضد كاليستوس، وإن كان ذلك ربما بحدة أقل [20] مما ورد في الكتاب التاسع، مع حذف الاتهامات الموجهة لأخلاقه. وليس من السهل فصل هيبوليتوس عن دعوته البليغة حقًا إلى رجال جميع الأمم للنجاة من أهوال تارتاروس ونيل خلود النعيم باعتناق مذهب الحق الذي يختتم به الكتاب، بعد استعراض للتاريخ العبري، وهو موضوع لطالما أثار اهتمام هيبوليتوس. ورغم أن الأمر ليس محسومًا، يبدو، بالتالي، أن الملخص، كبقية الكتاب، من تأليف هيبوليتوس نفسه.

في هذه الظروف، لا توجد سوى نظرية واحدة، في رأي كاتب هذه السطور، توفق بين جميع الحقائق المتضاربة. وهي أن أساس نصنا هو الملخص الذي وضعه هيبوليتوس، كما يخبرنا فوتيوس، بعد تلقيه التوجيه من إيريناوس. أن تلك الملاحظات، كما يقول هيبوليتوس نفسه، قد "دوّنها" ربما في شكل محاضرات، وربما كتابةً أيضًا، ولكن على أي حال قبل وقت طويل من تجميع نصنا؛ وأنه عندما اشتدّت منافسته مع كاليستوس، فكّر في إعادة نشر هذه الخطابات وتحديثها بإضافة الهرطقات النوتية وغيرها من الهرطقات غير الغنوصية التي كانت تنتشر آنذاك بين المجتمع المسيحي، إلى جانب الحقائق المتعلقة بالتنجيم والسحر التي علم بها خلال

إقامته الطويلة في روما. ويمكننا أن نفترض بعد ذلك أنه بعد كتابة الجزء الأكبر من كتابه، صادف أن عثر على وثائق تخص طائفة ناسين وغيرها من الطوائف الأوفيتية، التي تعود إلى الأيام الأولى للمسيحية، والتي ربما كانت في زمن هيبوليتوس على وشك الانقراض.[62] كان قد قرر سابقًا إغفال هذه الطوائف لقلة أهميتها،[63] لكنه الآن، بعد أن أدرك أهمية الوثائق الجديدة، أدرجها على عجل في كتابه مباشرةً بعد سرده للسحرة، حتى تظهر كما وصفها بشيء من الحقيقة، أي منبع ومصدر كل الغنوصية اللاحقة. وللقيام بذلك، كان عليه أن يُزيح أحصى الطوائف اليهودية والسامرية التي رأى جميع علماء الهرطقة في ذلك الوقت ضرورة البدء بها في كتابة تاريخهم. [21] ربما لم يتردد كثيرًا في فعل ذلك، لأن الإشارة المعتادة إلى هذه الطوائف بوصفها "هرطقات" كانت تتعارض بشكل أو بآخر مع نظريته المفضلة، وهي أن المبادئ الغنوصية لم تكن مجرد تحريف للتعاليم المسيحية، بل مستمدة من نظريات فلسفية حول خلق الأشياء، ومن الطقوس الصوفية.

لنفترض الآن أنه في أواخر حياته، عندما كان ربما مختبئًا من محققي ماكسيمين، أو حتى عندما كان في مناجم سردينيا، فكر في حفظ عمله للأجيال القادمة بإعادة كتابته - إذ لا شك أن السلطات الإمبراطورية قد صادرت النسخ التي تركها وراءه في روما. [64] لعدم امتلاكه المواد التي كان يستخدمها سابقًا، اضطر إلى تقديم أفضل ملخص ممكن من ذاكرته، وخلال ذلك وجد أن محتويات الكتب الأول والثاني والثالث - وهي المواد التي استقى منها في المقام الأول من إيريناوس - قد غابت عنه إلى حد كبير. وربما تمكن من استذكار جزء من الكتاب

الأول بمساعدة مؤلفات وثنية مثل مؤلفات ديوجين لايرتيوس، وإيتيوس، أو ربما ألكينوس الذي يبدو أنه استخدم ملخصه لمذاهب أفلاطون سابقًا.[65] أما الهرطقات الأوفيتية وغيرها من الهرطقات الغنوصية، فقد تذكرها بما يكفي لتسهيل تلخيصه لمذاهبها، على الرغم من أنه أغفل من القائمة قادة الهرطقة مثل ماركوس وساتورنيلوس وميناندر، الذين لم تكن لديه معلومات حصرية عنهم، ووضع جوستينوس الآن بعد باسيليدس بدلًا من قبله. وأخيرًا، تذكر الطوائف اليهودية التي كان ينوي إدراجها، ولأنه ربما كان قادرًا على الاطلاع، حتى في المناجم، على أعمال يهودي روماني لم يعتنق اليهودية مثل يوسيفوس، استخلص منها ما بدا مفيدًا لغرضه كمقدمة للتأمل الزمني الذي كان يشكل دراسته المفضلة. وبهذا الموجز كدليل له، واصل، ربما، تحذير رفاقه في الشدائد الذين أخبرنا أنه "أصبح مستشارًا لهم"، من مخاطر الهرطقة، ومناشدة مستمعيه غير المهتدين بما وصفه مترجمه السابق، عن جدارة، بأنه "نموذج نبيل للبلاغة الآبائية". من المرجح جدًا أنه مات في المناجم، ليس فقط بسبب تقدمه في السن[22] وقت نفيه، وما يترتب على ذلك من استبعاد قدرته على تحمل المناخ الموبوء، بل أيضًا بسبب ما ورد من أن جثمانه قد "دُفن" في سراديب الموتى في نفس يوم دفن زميله البابا والشهيد بونتيانوس.[66] ومع ذلك، فإن اضطهاد ماكسيمين، على الرغم من قسوته، كان قصيرًا، وبعد وفاة الطاغية بعد حكم دام ثلاث سنوات فقط، لا يوجد ما يمنع وصول نسخة من الكتاب العاشر إلى روما، حيث يُعتقد أنه كان معروفًا من كلماته الافتتاحية باسم "المتاهة". لاحقًا، ربما أُلحق بالكتب من الرابع إلى التاسع من كتاب هيبوليتوس الأكثر شهرة، ونُسخ

الكتاب بأكمله لاستخدام المسؤولين الذين كان عليهم التحقيق في الهرطقة. بالنسبة لهم، كان الكتابان الثاني والثالث عديمي الفائدة، وربما رأوا أنه من غير المناسب نشر أي معرفة تتجاوز ما هو ضروري لقمعهم الأمثل، للأسرار النجسة سواءً كانت وثنية أو غنوصية. أما الكتاب الأول، فإلى جانب كونه غير ضار، ربما كان قد ارتبط آنذاك ارتباطًا وثيقًا باسم أوريجانوس لدرجة يصعب معها التشكيك في نسبته إلى هذا الشخص الآخر الذي عانى من اضطهاد ماكسيمينوس في العصور اللاحقة.

يبقى فقط أن نرى كيف تتلاءم هذه النظرية مع ملاحظات فوتيوس المذكورة أعلاه. من الواضح أن فوتيوس يتحدث من الذاكرة فقط، وأن كلماته لا توحي بأنه كان قد اطلع على عمل هيبوليتوس الأصلي أثناء كتابته، إذ يتحدث عنه بصيغة الماضي كما لو كان يتحدث عن وثيقة فُقدت منذ زمن بعيد، على الرغم من حفظ بعض الذكريات عن محتواها. إذا كان الأمر كذلك، فقد نكون مستعدين لاعتبار وصف فوتيوس غير دقيق بالضرورة في كل تفاصيله. ومع ذلك، فإن وصفنا الحالي يكاد يكون وصفًا دقيقًا لنصنا. فالهرطقات الاثنتان والثلاثون، كما بيّنا سابقًا، تظهر في نصنا كما في وثيقة فوتيوس. لا يقتصر نصنا على المقتطفات المطولة من إيريناوس التي قد نتوقعها من رواية فوتيوس عن نشأته، بل يتضمن أيضًا "الردود" التي لا تظهر في كتاب "ضد جميع الهرطقات". ويمتد النص "حتى"، كما يقول فوتيوس، نويتوس والنويتيين، ورغم أنه لا يتضمن أي ذكر لدوسيثيوس أو الدوسيثيين، فربما ورد ذلك في الجزء الذي حُذف من الكتاب العاشر.[23] إذا كان الأمر كذلك، أو إذا أخطأ فوتيوس في هذا الشأن، كما هو

وارد عند الأخذ في الاعتبار أن جميع كتب الهرطقات المبكرة تبدأ بالطوائف اليهودية والسامرية، فإن الاختلاف الحقيقي الوحيد بين نصنا ووصف فوتيوس لعمل هيبوليتوس يكمن في الطول. لكن ليس من المؤكد بأي حال من الأحوال أن فوتيوس قد رأى بجمع العمل كاملاً، يتضح جلياً أنه لم يرَ قط أو نسي الكتب الأربعة الأولى التي تتناول الفلاسفة والأسرار والدجالين. فبدون هذه الكتب، وبدون الملخص، لا تتجاوز الكتب من الخامس إلى التاسع سبعين ألف كلمة، وقد يبدو هذا مجرد "كتيب" لرجلٍ كان منهمكاً آنذاك في تجميع مكتبته الضخمة. وسواءً دوّن هيبوليتوس شرحه للهرطقات الذي وضعه في شبابه أم لا، فمن المرجح أن كل أثرٍ مؤكدٍ لهذا الشرح قد فُقد. ومن المؤكد أنه لا يمكن التعرف عليه في كتاب "ضد جميع الهرطقات" المنسوب زوراً إلى ترتليان، وربما كان عمل هيبوليتوس الذي سجله فوتيوس نسخةً من نصنا بصورةٍ شبه كاملة.

5 .أسلوب العمل:

إن ملاحظة فوتيوس بأن هيبوليتوس لم يلتزم بالأسلوب الأتيكي هي تقليلٌ من شأن الأمر فيما يتعلق بنصنا. أُصيب جاكوبي، أول منتقدي النص، بالذهول من كثرة "الكلمات اللاتينية" التي وجدها فيه، حتى أنه خمّن أنه ليس إلا ترجمة يونانية لنص لاتيني أصلي.[68] وهذا مستبعدٌ لدرجة أنه يكاد يكون مستحيلاً إذا كان هيبوليتوس هو المؤلف بالفعل؛ ولا يُمكن تصور أي دافع لمثل هذه الترجمة إلا إذا أُجريت في فترة متأخرة نسبيًا. في هذه الحالة، كنا نتوقع أن نجد النص مليئًا بالكلمات والعبارات التي كانت تُستخدم فقط في العصر البيزنطي عندما تدهورت

اللغة اليونانية بفعل الاختلاط السلافي والشرقي. ومع ذلك، هذا ليس هو الحال مع نصنا، ولم نجد سوى عبارة بيزنطية واحدة واضحة[24] بعد بحث دقيق.[69] من ناحية أخرى، فإن الكلمات المُستحدثة ليست نادرة، خاصة في الكتاب العاشر،[70] وكل شيء يُشير إلى صحة ملاحظة كروبس بأن المؤلف لم يكن كاتبًا مُدرّبًا. لا يتعارض هذا بأي حال من الأحوال مع نظرية أن العمل بأكمله من تأليف هيبوليتوس، بل هو الأرجح إذا استنتجنا أنه كان في الأصل كلامًا منطوقًا لا مكتوبًا.

ويتأكد هذا عند النظر في بنية جمل المؤلف. فهي مطولة بتتابع من الجمل الموصولة إلى حد نادر حتى بين كتّاب اليونان المتأخرين، حيث تمتد أكثر من جملة واحدة على عشرين أو ثلاثين سطرًا من الصفحة المطبوعة دون نقطة، مع إهمال القواعد المعتادة المتعلقة بمكان وترتيب الكلمات في كثير من الأحيان. ومن خصائص أسلوبه الأخرى التراكم المستمر للعديد من التشبيهات أو المجازات حيث يكفي واحد فقط، وهو ما يظهر بوضوح في المقاطع التي يتحدث فيها المؤلف مطولًا بصيغته الخاصة دون اقتباس كلمات غيره. في كل هذا، يبدو لنا أننا نستمع إلى كلمات خطيب فصيح ولكنه متعب نوعًا ما. وهكذا في الكتاب الأول يقارن الفرح الذي يتوقع أن يجده في عمله بفرح الرياضي الذي يحصل على التاج، والتاجر الذي يبيع بضائعه بعد رحلة طويلة، والفلاح الذي يحصل على محاصيله بشق الأنفس، والنبي المحتقر الذي يرى تنبؤاته تتحقق.[71] لذلك في الكتاب الخامس، بعد أن ذكر كتابًا لأورفيوس يسمى باخيكا غير معروف، يمضي ليتحدث عن "الطقوس الصوفية لسيليوس وتريبتوليموس

وديميتر وكوري وديونيسوس في إليوسيس"،[72] في حين أن أي كاتب متمرس كان سيقول ببساطة أسرار إليوسيس. نجد تكرارًا مماثلًا للصور في الكتاب الثامن، حيث يتحدث عن بذرة شجرة التين باعتبارها "ملجأً للمذعورين، ومأوى للعراة، وحجابًا للستر، والثمرة المنشودة التي جاء إليها الرب ثلاث مرات باحثًا عن ثمر ولم يجد شيئًا".[73] ولكن من الطبيعي أن تظهر أبرز الأمثلة في عبارات الخطاب الرعوي الذي يختتم به الكتاب العاشر. وهكذا،[25] يُخبر غير المؤمنين أنهم بتلقيهم المعرفة بالله الحق، سينجون من خطر نار الدينونة الوشيك، ومن رؤية تارتاروس المظلمة، ومن حرق شاطئ جهنم الأبدي، ومن عين ملائكة تارتاروس في العذاب الأبدي، ومن الدودة التي تلتف دائمًا حول الجسد الذي وُلدت منه وكأنها تبحث عن طعام،[74] - أو كما كان ليقولها بكلمة واحدة، من أهوال الجحيم.

أقل تميزًا من ذلك، وإن كان لا يقل أهمية، هو التلاعب بالألفاظ الذي يُستخدم هنا بكثرة. هذا ليس غريبًا على كُتّاب الكنيسة الآخرين في ذلك الوقت، ويبدو أنه قد لفت انتباه تشارلز كينغسلي عندما وصف، بعد قراءةٍ حديثةٍ لكتابات القديس أوغسطين، بأنه "بترجمةٍ خاطئةٍ تمامًا" حرّف أحد المزامير ليُصبح معناه مختلفًا تمامًا عما كان عليه في ذهن الكاتب، وما لم يكن ليُمكن أن يعنيه أبدًا، ثم تلاعب بالألفاظ في النسخة اللاتينية.[75] أما هيبوليتوس، عندما يكتب بشخصه، فلا يستخدم هذا الأسلوب إلا باعتدال. أحيانًا يفعل ذلك بشكلٍ مشروعٍ إلى حدٍ ما، كما في حديثه عن الغنوصيين الذين يُدخلون مُهتديًا جديدًا إلى أنظمتهم ويُسلمونه "كمال الشر" - الكلمة المستخدمة للكمال تحمل المعنى الصوفي أو التقني للتلقين، بالإضافة إلى

المعنى الأكثر شيوعًا وهو الإتمام[76]؛ أو عندما يقول إن قياسات بطليموس للمسافات النجمية قد أدت إلى [77]وفي أحيان أخرى، يتلاعب بوعي بالمعنى المزدوج للكلمة، كما هو الحال عندما يقول إن أولئك الذين يغامرون بالانغماس في المجون ليسوا بعيدين عن غضب الله [78] .(ὀργή)في بعض الأحيان، مرة أخرى، ينجرف وراء تشابه صوتي عرضي كما هو الحال عندما يحاول ربط اسم الدوسيتيين، الذي يعرف أنه مأخوذ منδοκεῖν ، "يبدو"، مع "الشعاع (δοκός) في العين" في موعظة الجبل. [79] ويقوم بتورية ثانية وأكثر وضوحًا على نفس الكلمة لاحقًا عندما يقول إن الدوسيتيين يفعلون أكثر من مجرد الظهور بمظهر المجانين؛ لكنّه يبلغ ذروة الوقاحة حين يشتق كلمة "نبي" من الفعل اليوناني προφαίνειν بدلاً من πρόφημι[80]، وهو تحريف يصعب على المرء أن يتصوره وارداً في ذهن أي شخص لديه أدنى معرفة بقواعد اللغة اليونانية.

[26]

لكن هذه التورية، على رداءتها، لا تُذكر مقارنةً ببعض المؤلفين الذين يقتبس منهم. لا يُضاهي أحد في هذا الصدد جهود مؤلف ناسين، الذي قد تُخجل تلاعباته اللفظية واشتقاقاته الجريئة تلك الموجودة في كتاب كراتيلوس. أداماس وآدم، كوريباس و κορυφή (الرأس)، جيريون و Γηρυόνην("يتدفق من الأرض")، بلاد ما بين النهرين و "نهر من الوسط"، باباس و παῦε، " παῦε"(كف! توقف"!)، Αἰπόλος ("قطيع الماعز") و" ἀεὶ ποῶν ") يتحول

دائمًا(")، naas("ثعبان") و ναός("المعبد")، الفرات و εὐφραίνει ("يفرح") ما هي إلا عدد قليل من التورية الرهيبة التي يرتكبها.[81] المؤلف البيراتي أكثر رصانة في هذا الصدد، ومع ذلك فهو، أو ربما هيبوليتوس بالنسبة له، يشتق اسم الطائفة من كلمة περᾶν (أي "يتجاوز")،[82] على الرغم من أن ثيودوريت، على الأرجح، سيأخذها من جنسية معلمها الفراتي البيراتي أو الميدي؛ ولا يحتوي الفصل الخاص بالسيثيين على أي تورية. ومع ذلك، فإن الفصل الخاص بجوستينوس يعوض عن ذلك باشتقاق اسم الإله بريابوس من كلمة πριοποιέω، وهي كلمة تم اختراعها لهذه المناسبة.[83] "يبدو أن الغنوصيين العظماء في عصر هادريان"، وهم: باسيليدس وماركيون وفالنتينوس، كانت لديهم أرواح أسمى من هذه الصبيانية؛ لكن الكاتب الدوسيتيّ يعود إلى هذا النهج بتشبيه جريء بين "باتوس" (شجيرة) و"باتوس" (رداء هيرا أو "الضباب")[84]، ويحذو حذوه مونويموس العربيّ بنوع من التلاعب اللفظي بين الوصايا العشر و"ديكابليغوس" أو ضربات مصر العشر، وهو تشبيه ما كان ليخطر ببال أحد لولا ميل الساميين إلى الجناس.[85] أما الكتّاب الأقلّ اقتباسًا، فلا داعي للحديث عنهم، إما لعدم وجود مقتطفات من أعمالهم في نصّنا، أو لأنّها قصيرة جدًا بحيث لا تسمح لنا بالحكم عليها فيما إذا كانوا هم أيضًا يميلون إلى التورية.

وبغضّ النظر عن هذه الأمور البسيطة نسبيًا، فإنّ الاختلاف في الأسلوب بين الكتّاب الغنوصيين المذكورين هنا واضحٌ جليّ. ولا شيء أغرب للوهلة الأولى من طريقة تعبير الكاتب الناسيني. يبدو للقارئ، عند أول قراءة لتأملاته، أن الكاتب قد عزم على عدم الخوض

في أي فكرة تتجاوز حدود جملة واحدة. فبعد أن بدأ بفكرة الإنسان الأول،[27] التي نجدها حاضرة كخيط يربط بين العديد من المعتقدات الشرقية، من معتقدات القباليين اليهود إلى المانويين الذين ربما استقوها مباشرة من مصدرها البدائي في بابل،[86] ينتقل مباشرة من هذه الفكرة ليعلن التقسيم الثلاثي للكون وكل ما يحتويه، بما في ذلك أرواح البشر وطبائعهم، وليحث على الزهد الشديد. ومع ذلك، فإن كل هذا يدور، إن صح التعبير، حول ترنيمة لأتيس، يزعم أنها تتعلق بأسرار الأم، مع إشارات عديدة إلى أكثر طقوس ديميتر إليوسيس سرية، ويبدو أنها تشير أيضاً إلى طقوس إيزيس اليونانية. من جهة أخرى، يُعلّم مؤلف بيراتيك أيضًا بتقسيم ثلاثي للأشياء والأرواح، لكنه لا يستمدّ براهينه من المصادر الصوفية نفسها التي استند إليها ناسين، بل مما يُعلنه هيبوليتوس نظام المنجمين. هذا النظام، الذي لا يُلمّح إليه في أي عمل مُعلن عن التنجيم، هو أن النجوم هي سبب كل ما يحدث هنا في الأسفل، وأنه لا يُمكننا التحرر من سيطرتها إلى أحد العالمين اللذين يعلو عالمنا إلا بمساعدة المسيح، الذي يُسمى هنا الحية الكاملة، والذي يُوجد كوسيط بين خالق كل شيء والمادة. ومع ذلك، فإن هذه العقيدة، التي يُمكننا أيضًا قراءتها دون إقحام النص في ترنيمة ناسين، مُصاغة بكل دقة ورصانة الطرح العلمي، وهي خالية تمامًا من حماسة الكاتب الأخير وحماسته المفرطة، كما أنها خالية من إشاراته الدائمة إلى الأساطير اليونانية، وخاصةً إلى الأساطير الإسكندرية والأناضولية.[87] يختلف هذان النصان تمامًا في أسلوبهما عن أسلوب المؤلف "السيثي" الذي يورد لنا هيبوليتوس مقتطفات مطولة منه، والذي يبدو أنه اعتمد بشكل أساسي على صور

تتعارض تمامًا مع جميع الأعراف الغربية للحشمة.[88] ومع ذلك، يؤكد الثلاثة جميعًا إيمانهم الراسخ بألوهية يسوع ورسالته الإلهية، الذي ينسبونه إليه.

كانت هذه الفصول الثلاثة، التي تُعرف باسم "الوثنية الطيبة"، تُعتبر، وفقًا للعديد من المؤلفين المعاصرين، المَعْبُودَ الرئيسي في كل معبد وثني في آسيا الصغرى[28].[89] ولذلك، فقد صنّفها هيبوليتوس، عن حق، ضمن بدع الأوفيتية، ويبدو أنها تستند إلى تقاليد سائدة في جميع أنحاء غرب آسيا، والتي ربما لم تنقرض تمامًا حتى الآن. ومع ذلك، فإن كلًا من المؤلفين الثلاثة المذكورين في نصنا يكتب بأسلوب مختلف تمامًا عن أسلوب زميليه من رواد هذه البدع، وهذا وحده كافٍ لإزالة أي شك في صحة الوثيقة.

وقد أُخذت هذه الفصول الثلاثة المتعلقة بالأوفيتية أولًا لأنها في نصنا تُشكّل بداية علم البدع بالمعنى الدقيق للكلمة.[90] وكما ذُكر سابقًا، يعتقد كاتب هذه السطور أنها إضافة أُدخلت في اللحظة الأخيرة من قِبل المؤلف، وليست بأي حال من الأحوال الجزء الأكثر قيمة، على الرغم من أنها ربما تكون الجزء الأكثر غرابة في الكتاب. مع ذلك، فهي تُشابه إلى حد كبير في فكرها الاقتباسات الواردة في نصنا والمنسوبة إلى سيمون ماجوس، ورغم اختلاف الأفكار الظاهرة فيها في بعض الجوانب المادية، إلا أنه يبدو أن هناك تشابهاً بين مجموعتي الوثائق في استخدام اللغة الرنانة والصور المبتذلة أحياناً. ولكن عندما ننتقل من هذه إلى المقتطفات من الأعمال المنسوبة إلى فالنتينوس وباسيليدس التي أوردها لنا هيبوليتوس، يظهر تغيير واضح على الفور. هنا نجد فصاحة في اللغة تُضاهي فصاحة الفكر، وفي حالة فالنتينوس تحديداً، فإن

أسلوبه يُضاهي تماماً المقاطع من خطابات ذلك الهرطقي البليغ الذي اقتبسه كليمنت الإسكندري. نشعر عند قراءتها وكأننا قد سافرنا بالفعل من نهر العاصي إلى نهر التيبر، وهذا الاختلاف في الأسلوب كفيلٌ بإقناع أكثر النقاد تشككاً بحسن نية مؤلفنا المُهمل وبصحة المصادر التي استقى منها معلوماته.

٦ .قيمة العمل:

ما أهمية عمل هيبوليتوس هذا لنا في يومنا هذا؟ أولًا، إنه يحفظ لنا العديد من الآثار الثمينة لأدبٍ بدا قبل اكتشافه وكأنه ضائعٌ إلى الأبد. فالترنيمة الوثنية لأتيس[٢٩] والترنيمة الغنوصية عن الرسالة الإلهية ليسوع، وكلاهما يظهر في الكتاب الخامس، تُعدّان اكتشافاتٍ ذات قيمةٍ عالية لدراسة المعتقدات الدينية في القرون الأولى من عصرنا، ومعهما العديد من الشظايا التي لا تقل أهمية، بما في ذلك قصيدة بيندار في الكتاب نفسه. ولا تقل فائدةً أو إثارةً للدهشة ما يكشفه الكتاب نفسه عن المعنى الحقيقي للعبادة التوفيقية لأتيس وسيبيل، والكشف هنا عن السر الأسمى لطقوس إليوسيس، التي نعرف الآن لأول مرة أنها بلغت ذروتها في تمثيل زواجٍ إلهي وولادة إلهٍ رضيع، إلى جانب العرض الرمزي لـ"سنبلة قمحٍ تُحصد في صمت". تُعدّ هذه الحقائق ذات قيمة بالغة لدراسة العصور الكلاسيكية القديمة، وكذلك لعلم الأديان.

لكن كل هذا سيُصبح، بالنسبة لمعظمنا، أقل أهمية من الصورة التي يرسمها لنا نصنا عن صراعات المسيحية ضد أعدائها الخارجيين والداخليين خلال القرون الثلاثة الأولى. فبدلاً من أن تكون هذه الفترة فترة نمو وتطور هادئين للكنيسة الوليدة، نراها في صفحات هيبوليتوس

مُعرّضة ليس فقط لاضطهاد عنيف، وإن كان متقطعًا، من الأباطرة الوثنيين، بل أيضًا لتنافس مستمر وثابت بين عشرات المدارس الفكرية المتنافسة، بقيادة بعضٍ من أعظم عقول ذلك العصر، والتي جمعت جميعها بين بعض المبادئ الأساسية للمسيحية وبقايا الوثنية. ونعلم الآن أيضًا أنها لم تكن قادرة دائمًا على إظهار صمودٍ لا يلين أمام هؤلاء المهاجمين العنيفين أو الماكرين. في أعلى مراتب الكنيسة، كما نعلم الآن لأول مرة، كانت هناك انقسامات حول مسائل الإيمان، سبقت إلى حد ما تلك التي كادت أن تمزقها إربًا بعد إعلان قانون الإيمان في نيقية. لا شك أن انشقاقًا كهذا بين كنيستي هيبوليتوس وكاليستوس قد أتاح فرصًا عديدة لأعدائها الذين كانوا في حاشيتها؛ بينما احتشد حول هذا الصراع، كقوات مساعدة غير نظامية لجيش نظامي، حشد من صانعي المعجزات والعرافين وغيرهم ممن يستغلون سذاجة العامة، والذين سبق أن اطلعنا على بعض جوانب أعمالهم من كتابات لوسيان وأبوليوس، ولكن هيبوليتوس هو أول من وصف أساليبهم وممارساتهم وصفًا كاملًا.

إن اعتناق الإمبراطورية بأكملها للمسيحية في عهد قسطنطين[30] قد قضى نهائيًا على نفوذ هؤلاء الأعداء للكنيسة. وقد حدثت انشقاقات أخرى لاحقًا، ولكن على الرغم من خطورتها، فقد أثبتت لحسن الحظ عجزها عن تدمير الوحدة الجوهرية للمسيحية. سرعان ما ذبلت الديانات الوثنية والطوائف الغنوصية المنبثقة عنها كالنباتات التي لا جذور لها، وقد طاردت الدولة التي آوتهم في السابق، هي والدجالين الذين فصّل مؤلفنا أفعالهم، بلا هوادة: بينما لو لم تكن الوسائل المستخدمة لهذا الغرض مثل تلك على الرغم من أن الأخلاق المسيحية الأنقى ستوافق عليها

الآن، إلا أنه يجب أن نتذكر أن هذه الوسائل كانت ستثبت على الأرجح عدم جدواها لولا أن التعاليم المسيحية قد قضت بالفعل على سيطرة هذه المعتقدات القديمة على شعوب الإمبراطورية الغاضبة. إن تمكين الكنيسة الناشئة من الانتصار على جميع أعدائها قد يبدو للكثيرين دليلاً أفضل على هدايتها الإلهية من القوى الخارقة التي نُسبت إليها في السابق. قد لا نصدق جميعًا أن عاصفة مطرية أطفأت النار التي كان من المقرر أن تُحرق فيها ثيكلا حية، أو أن التماسيح في الخزان الموجود في الساحة التي أُلقيت فيها قد صُعقت بالبرق وطفَت إلى السطح ميتة.[91] ولا يمكننا تصديق أن صور القديس ثيودور وغيره من القديسين العسكريين قد غادرت مكانها في قصر ملكة فارس وسارت في هيئة بشرية.[92] إن مثل هذه القصص بالنسبة لمعظمنا إما خرافات دينية أُلفت للتثقيف أو سجلات شبه منسية لأحداث طبيعية نُظر إليها من خلال ضباب المبالغة والتحريف الشائع في العقل الشرقي. لكن أن الكنيسة التي بدأت كحبة خردل يمكن أن تهيمن في وقت قصير على العالم المتحضر بأكمله قد يبدو، عندما ننظر إلى الصعوبات التي واجهتها، معجزة أعظم من أي من تلك المسجلة في الأناجيل المنحولة وأعمال الرسل؛ وما كنا لنعرف المدى الكامل لهذه الصعوبات لولا اكتشاف ميناس لنصنا.

الكتاب الأول[1]

الفلاسفة

ما هي مبادئ الفلاسفة الطبيعيين ومن هم؟ وما هي مبادئ علماء الأخلاق ومن هم؟ وما هي مبادئ علماء الجدل ومن هم؟

[32]

والفلاسفة الطبيعيون المذكورون هم: طاليس، وفيثاغورس، وإمبيدوكليس، وهيراقليطس، وأناكسيماندر، وأناكسيمينس، وأناكساغوراس، وأرخيلاوس، وبارمنيدس، وليوكيبوس، وديموقريطس، وزينوفانيس، وإكفانتوس، وهيبو (ص 2). أما علماء الأخلاق فهم: سقراط، تلميذ أرخيلاوس الفيزيائي، وأفلاطون، تلميذ سقراط. وقد مزج هؤلاء الأنواع الثلاثة من الفلسفة. من أبرز علماء الجدل أرسطو، تلميذ أفلاطون ومؤسس الجدل، والرواقيان خريسيبوس وزينون.

أما إبيقور، فقد تبنى رأيًا مناقضًا تمامًا لآراء هؤلاء جميعًا. وكذلك فعل بيرو الأكاديمي[4] الذي يؤكد استحالة إدراك كل شيء. وهناك أيضًا البراخمان[5] بين الهنود، والدرويديون بين السلتيين، وهسيود.

مقدمة:

لا ينبغي إغفال أي خرافة اشتهر بها الإغريق. فحتى تلك الآراء التي تفتقر إلى الاتساق تُصدق بفضل جنون الهراطقة المفرط، الذين يُظن أنهم يعبدون الله، إذ يخفون أسرارهم التي لا تُوصف في صمت. وقد عرضنا آراءهم أيضًا باعتدال، دون تفصيلها، بل دحضناها بإيجاز[6]، إذ لم نرَ من المناسب كشف أفعالهم الشنيعة (ص 3). فعلنا ذلك حتى إذا ما أشرنا إلى معتقداتهم تلميحًا فقط، فإنهم، إذ شعروا بالخجل خشية أن نكشف أسرارهم صراحةً فنثبت كفرهم، يتراجعوا قليلًا عن غايتهم غير المنطقية ومسعىهم غير المشروع.[7] ولكن لما رأيت أنهم لم يخجلوا من رحمتنا، ولم يتأملوا في صبر الله الطويل على تجديفهم،[33] فأنا مضطر، إما أن يخجلوا فيتوبوا، أو أن يُحكم عليهم بما هم عليه، أن أكشف أسرارهم التي لا تُوصف والتي يُفصحون عنها لأولئك المرشحين للانتساب الذين هم جديرون بالثقة تمامًا. ومع ذلك، فهم لا يُفصحون عنها مسبقًا، إلا إذا استعبدوا أحدهم بإبقائه في حالة ترقب طويل، وأعدوه بالتجديف على الله الحق،[8] ورأوه يتوق إلى متعة الكشف. ثم، عندما يثبتون أنه مقيدٌ بالظلم،[9] يُلقّنونه ويُلقّنونه كمال الشرور،[10] ويُلزمونه أولًا بقسمٍ ألا يُخبر بها أحدًا أو يُفشيها لأحدٍ إلا إذا كان هو الآخر مُستعبدًا بنفس الطريقة. ومع ذلك، فإنه من غير الضروري أن يُقسم أحدٌ بعد أن يُبلّغها هو فقط. لأن من خضع ليتعلم ويتلقى أسرارها الأخيرة، سيكون مُلزمًا بفعله نفسه وضميره ألا يُفشيها للآخرين. لأنه لو أفصح لأحدٍ عن مثل هذه الذنب، لما حُسب بين البشر، ولما اعتُبر جديرًا برؤية النور. وهذه الأمور أيضًا من الذنوب التي حتى الحيوانات البكماء لا تُقدم عليها، كما سنُبين لاحقًا.[11] ولكن بما أن الحجة تُجبرنا على

الخوض في القضية بعمقٍ شديد، فإننا لا نرى من المناسب التزام الصمت، بل سنُفصّل آراء الجميع، ولن نصمت عن أيٍّ منها. ويبدو لنا من الحكمة ألا ندخر جهدًا حتى لو أدى ذلك إلى إطالة القصة. فسنترك وراءنا عونًا كبيرًا لحياة الناس ضد المزيد من الضلال، حين يرى الجميع بوضوح الطقوس الخفية التي لا توصف والتي يديرها الهراطقة [34] ولا ينشرونها إلا على المقربين. ولكن لا أحد يدحض هذه الأمور سوى الروح القدس الذي أُنزل في الكنيسة، والذي تلقاه الرسل أولًا ووزعوه على المؤمنين حقًا. ونحن خلفاؤه، ونشاركهم نعمة الكهنوت الأعظم [12] والتعليم، ونُعتبر حماة الكنيسة. لذلك لا نغض الطرف ولا نمتنع عن الكلام الصريح، ولا نملّ من العمل بكل جوارحنا لنقدم خدمة جليلة لله الكريم. ولا نكتفي بما أُسند إلينا، بل نؤدي واجبنا على أكمل وجه، ونشارك الجميع دون حسد ما يرزقنا به الروح القدس. وهكذا لا نكشف فقط عن طريق دحض حجج العدو،[13] بل نكشف أيضًا كل ما ناله الحق بنعمة الآب وخدم به الناس. هذه الأمور نبشر بها[14] بلا خجل، مفسرين إياها بالخطابة وموثقين إياها بالكتابات.

ولذلك، كما ذكرنا سابقًا، لنبين أن هؤلاء الرجال مفترون في غاياتهم وأفعالهم وسلوكهم، ومن أين أتت مخططاتهم، ولأنهم لم يستقوا شيئًا من الكتب المقدسة في مساعيهم، ولم يكن دافعهم حماية إرث أي قديس.

تم التطرق إلى هذه الأمور في الصفحة 6. هذه الأمور، لكن نظرياتهم[15] تستمد أصولها من حكمة الإغريق، ومن الآراء الفلسفية[16]، ومن الألغاز المزعومة، ومن المنجمين المتجولين -

لذا يبدو من المناسب أن نعرض أولًا مبادئ فلاسفة الإغريق، ونشير إلى قرائنا[17] أيهم أقدمهم وأكثرهم تبجيلًا[35] للألوهية[18]. ثم، أن نربط[19] كل بدعة برأي معين، لنبين كيف استفاد صاحب البدعة، عند لقائه بهذه المخططات، من خلال تبني مبادئها، ثم انجرافه عنها إلى ما هو أسوأ، فبنى نظامه الخاص[20]. الآن، هذه المهمة شاقة وتتطلب بحثًا دقيقًا. لكننا لن نتخلف عن الركب. ففي النهاية، سيمنحنا ذلك فرحًا عظيمًا، كما هو حال الرياضي الذي نال التاج بعد عناءٍ طويل، أو التاجر الذي ربح بعد عناءٍ شديد، أو الفلاح الذي حصد ثمار محاصيله بعرق جبينه، أو النبي الذي رأى نبوءاته تتحقق بعد اللوم والإهانة.[21] لذلك، سنبدأ بتحديد أيًّا من اليونانيين كان أول من برهن على الفلسفة الطبيعية. فمنهم على وجه الخصوص، أصبح دعاة الهراطقة سارقين، كما سنبين لاحقًا في الصفحة 7 من خلال المقارنة بينهم. وعندما نعيد لكلٍّ من هؤلاء الرواد فضله، سنضع دعاة الهراطقة بجانبهم عراةً وغير لائقين[22].

1 .طاليس.

يُقال إن طاليس الميليسي، أحد الحكماء السبعة، كان أول من تناول الفلسفة الطبيعية.[23] قال إن بداية الكون ونهايته الماء؛[24] فمن خلال تصلبه وانحلاله بُنيت كل الأشياء، ومنه تدور جميعها. ومنه أيضًا تنشأ الزلازل ودوران النجوم[36] وحركة الرياح.[25] وأن كل الأشياء تتشكل وتتدفق وفقًا لطبيعة السبب الأول للخلق؛ لكن الألوهية هي التي لا بداية لها ولا نهاية.[26] وقد أصبح طاليس، بعد أن كرّس نفسه لنظام النجوم والبحث فيها، أول من ساهم

في هذا الفرع من المعرفة عند الإغريق. وبينما كان ينظر إلى السماء ويقول إنه يُمعن النظر في الأمور العليا، سقط في بئر؛ فضحكت عليه خادمة تُدعى ثراتا[27] وقالت: "بينما هو منشغل بالنظر إلى الأشياء في السماء، لا يرى ما تحت قدميه." وعاش في زمن قريب من زمن كروسوس.

2 .فيثاغورس.

وفي ذلك الوقت تقريبًا، ازدهرت فلسفة أخرى أسسها فيثاغورس، الذي يُقال إنه كان ساموسيًا. ويُطلق عليها اسم الفلسفة الإيطالية لأن فيثاغورس، هربًا من بوليكراتس، طاغية ساموس، استقر في مدينة إيطالية وقضى فيها حياته. ولم يختلف خلفاؤه في هذه المدرسة كثيرًا عنه في الرأي. وبعد أن بحث في الفيزياء، جمعها مع علم الفلك والهندسة والموسيقى.[28] وهكذا بيّن أن الوحدة هي الله،[29] وبعد دراسة متأنية لطبيعة العدد، قال إن الكون يُصدر لحنًا، وأنه مُرتبٌ بالتناغم، وقد اختزل حركة النجوم السبعة[30] إلى إيقاع ولحن. ولكن، وهو يتعجب من ترتيب الكليات،[31] [37] ص. 9. كان يتوقع من تلاميذه التزام الصمت حيال ما تعلموه في البداية، كما لو كانوا أسرار الكون عند نشأته. بعد ذلك، عندما بدا أنهم قد استوعبوا ما يكفي من تعاليم المحاضرات، وأصبحوا قادرين على التفلسف بأنفسهم حول النجوم والطبيعة، وبعد أن رأى أنهم قد طهروا، أمرهم بالكلام. قسم التلاميذ إلى فئتين، وسماهما الباطنيين والظاهريين. عهد إلى الأولى بالتعليم الأكثر شمولاً، وإلى الثانية بالتعليم الأكثر تقييدًا. كما أنه انكبّ على دراسة السحر، كما يُقال، وابتكر فلسفة لأصل الطبيعة، قائمة على أعداد ومقاييس

معينة، قائلاً إن أصل الفلسفة الحسابية يشمل هذه الطريقة بالتركيب. أصبح العدد الأول مبدأً واحدًا، لا محدود، لا يُدرك، ويحتوي في داخله على جميع الأعداد التي يمكن أن تصل إلى اللانهاية بالضرب. لكن الوحدة الأولى كانت، بحسب الفرضية، أصل الأعداد، وهي وحدة ذكرية تُنجب كالأب جميع الأعداد الأخرى. في المرتبة الثانية تأتي الثنائية، وهي عدد مؤنث، ويُطلق عليها علماء الحساب اسم الزوجي. في المرتبة الثالثة تأتي الثلاثية، وهي عدد ذكري، وقد أطلق عليها علماء الحساب اسم الفردي. بعد كل هذه تأتي الرباعية، وهي عدد مؤنث، وتُسمى أيضًا الزوجي لأنها مؤنثة. لذلك، فإن جميع الأعداد المشتقة من الجنس[36] (الجنس غير المحدود الآن هو "العدد") هي أربعة، والتي بُني منها، وفقًا لهم، العدد الكامل، وهو العشري. لأن 1، 2، 3، 4 تصبح 10 إذا كان لكل عدد اسمه المناسب.

حُفظت هذه العشرية [37] في الأصل.[38] قال فيثاغورس إنها رباعية مقدسة، مصدر للطبيعة الأبدية التي تحتوي على جذور في داخلها، وأن جميع الأعداد تبدأ من نفس العدد. فالعددان 11 و12 وبقية الأعداد تشترك في بداية وجودها من العدد 10. تُسمى الأقسام الأربعة لنفس العشرية، وهو العدد الكامل، بالعدد، والموناد [38]، والمربع [39]، والمكعب. إن اقترانات ومزجات العدد 11، التي تُؤدي إلى ولادة الزيادة، تُكمل بشكل طبيعي العدد الخصب. فعندما يُضرب المربع [40] في نفسه، يُصبح مربعًا مربعًا؛ وعندما يُضرب في المكعب، يُصبح مربعًا مكعبًا؛ وعندما يُضرب المكعب في المكعب، يُصبح مكعبًا مكعبًا. لذلك، فإن جميع

الأعداد التي تنشأ منها الأشياء الموجودة هي سبعة؛ وهي: العدد، والموناد، والمربع، والمكعب، ومربع المربع، ومكعب المربع، ومكعب المكعب.

أعلن أيضًا أن الروح خالدة وأن هناك تحولًا من جسد إلى آخر.[41] ولذلك قال إنه كان قبل زمن طروادة إيثاليدس،[42] وأنه في عصر طروادة كان يوفوربوس، وبعد ذلك هيرموتيموس الساموي، وبعد ذلك بيرو الديلوسي، وخامسًا فيثاغورس. لكن ديودور الإريتري وأريستوكسينوس كاتب الموسيقى[43] يقولان إن فيثاغورس[39] ذهب لزيارة زاراتاس[44] الكلداني؛ وشرح له زاراتاس أن هناك منذ البداية سببين للأشياء الموجودة، أب وأم: وأن الأب هو النور والأم هي الظلام: وأن أقسام النور حارة وجافة وخفيفة (في الوزن) وسريعة؛ أما أقسام الظلام فهي باردة ورطبة وثقيلة وبطيئة. ومن هذه، ص 12، بُني الكون بأكمله، أي: من أنثى وذكر؛ وأن طبيعة الكون[45] تقوم على التناغم الموسيقي، ولذلك تسير الشمس في مسارها بإيقاع منتظم. ويُقال إن زاراتاس قال عن الأشياء التي تنشأ من الأرض والكون: هناك شيطانان[46]، أحدهما سماوي والآخر أرضي. أرسل الأرضي منهما إلى العلى شيئًا مولودًا من الأرض وهو الماء؛ أما النار السماوية فقد استمدت من الهواء، حارًا كان أم باردًا. ولذلك، يقول، لا شيء من هذه الأشياء يُهلك الروح أو يُلوثها، لأنها جوهر كل شيء. ويُقال إن فيثاغورس أمر بعدم أكل الفول، لأن زاراتاس قال إنه في بداية كل شيء وتكوينه، عندما كانت الأرض لا تزال تُبنى وتُجمع، وُجد الفول. ويقول إن الدليل على ذلك هو أنه إذا مضغ المرء حبة فول حتى أصبحت لبًا ووضعها في الشمس لبعض الوقت (لأن هذا يلعب دورًا مباشرًا في

الأمر)، فإنها ستنبعث منها رائحة مني بشري. ويقول إن هناك دليلاً آخر أوضح. إذا أخذنا حبة الفول وزهرتها، عندما تكون مزهرة (ص ١٣)، ووضعناها في إناء، ودهنّاها، ودفنّاها في التراب، وبعد بضعة أيام حفرناها، فسنجدها في البداية على شكل أعضاء تناسلية أنثوية، وبعد ذلك، عند التدقيق، سنجد رأس طفل ينمو معها.

هلك فيثاغورس في كروتونا بإيطاليا بعد أن أُحرق مع تلاميذه. وكان من عادته أنه إذا جاءه أحدٌ تلميذاً، فعليه أن يبيع ممتلكاته ويودع ثمنها مختوماً لدى فيثاغورس، وأن يلتزم الصمت أحياناً لثلاث سنوات وأحياناً لخمس سنوات أثناء تعلمه. ولكن عندما يُطلق سراحه، يختلط بالآخرين ويبقى تلميذاً لهم ويتناول طعامه معهم. أما إذا لم يفعل، فإنه يسترد ما يملك ويُطرد. وكان يُطلق على الباطنيين اسم الفيثاغوريين، وعلى الآخرين اسم الفيثاغوريين. ومن بين تلاميذه الذين نجوا من الحريق، كان ليسيس وأرخبوس وزامولكسيس، خادم فيثاغورس، الذي يُقال إنه علّم الدرويديين من السلتيين فلسفة فيثاغورس. ويُقال إن فيثاغورس تعلّم الأرقام والمقاييس من المصريين، ولما انبهر بحكمة الكهنة المقنعة والمهيبة والتي يصعب كشفها، (ص 14)، اقتدى بهم أيضًا في فرض الصمت، وأسكن تلاميذه في زنزانات، وجعلهم يعيشون حياةً منعزلة[47].

3 .**عن إمبيدوكليس.**

لكن إمبيدوكليس، الذي وُلد بعد هؤلاء الرجال، قال أيضًا أشياء كثيرة عن طبيعة الشياطين، وكيف أنهم، لكثرتهم، يديرون الأمور على الأرض. قال إن بداية الكون كانت الصراع

والصداقة، وأن النار الفكرية للوحدة هي الله، وأن كل الأشياء بُنيت من النار وستعود إلى النار.[48] في هذا الرأي، يتفق الرواقيون تقريبًا، إذ يتوقعون حدوث إكبيروسيس. لكنه قبل أكثر من أي شيء آخر التحول إلى أجساد مختلفة، قائلًا:

"لقد صرت حقًا صبيًا، وفتاة،

وشجيرة، وطائرًا جارحًا، وسمكة،

رحّالة من البحر المالح[49]".

[41]

ص 15. أعلن أن جميع الأرواح تتناسخ في جميع الكائنات الحية.[50] لأن فيثاغورس، معلم هؤلاء الرجال، قال إنه كان هو نفسه يوفوربوس الذي قاتل في إيليون، وادعى أنه تعرف على الدرع.[51] هذا ما قاله إمبيدوكليس.

4 .عن هيراقليطس.

لكن هيراقليطس الأفسسي لقد رثى أحد الفيزيائيين كل شيء، متهمًا الحياة كلها والبشر جميعًا بالجهل، ومشفقًا على حياة الفانين. إذ ادعى أنه يعلم كل شيء، بينما لا يعلم غيره شيئًا.[52] كما أدلى بتصريحات تكاد تتفق مع إمبيدوكليس، إذ قال إن الخلاف والصداقة هما بداية كل شيء، وأن النار العقلية هي الله، وأن كل الأشياء تتراكم على بعضها البعض ولا تتوقف. ومثل إمبيدوكليس، قال إن كل مكان من أماكننا مليء بالشر، وأن هذا الشر يصل إلى القمر الممتد

من المكان المحيط بالأرض، ولكنه لا يتجاوزه، لأن المكان فوق القمر كله طاهر جدًا.[53]

وهكذا بدا الأمر لهيراكليتوس أيضًا.

ص 16. وبعد هؤلاء جاء فيزيائيون آخرون لا نرى ضرورة لذكر آرائهم، لأنها لا تتعارض بأي حال من الأحوال مع ما سبق ذكره. لكن بما أن هذه المدرسة لم تكن صغيرة بأي حال من الأحوال، وقد انبثق منها العديد من الفيزيائيين فيما بعد، وكلٌّ منهم تناول طبيعة الكون بأساليب مختلفة، فإنه يبدو لنا مناسبًا أيضًا، بعد أن عرضنا الفلسفة المستمدة من فيثاغورس، أن نعود، وفقًا لتسلسل الأحداث، إلى آراء أولئك الذين اتبعوا طاليس، وبعد سردها ننتقل إلى الفلسفات الأخلاقية والمنطقية، التي أسس سقراط الأخلاقية وأرسطو الجدلية.

[42]

5 .**حول أناكسيماندر.**

كان أناكسيماندر من أتباع طاليس. وهو أناكسيماندر الملطي، ابن براكسيادس.[54] قال إن بداية الأشياء الموجودة هي طبيعة معينة من اللامحدود، ومنها نشأت السماوات والعوالم المنظمة[55] التي بداخلها. وأن هذا المبدأ أبدي لا يشيخ، ويشمل جميع العوالم المنظمة. ويقول إن الزمن محدود بالولادة، ص. ١٧. الجوهر،[٥٦] والموت. قال إن اللامحدود مبدأ وعنصر من عناصر الأشياء الموجودة، وكان أول من أطلق عليه اسم المبدأ. ولكن هناك حركة أبدية نحوه، وفيها تولد السماوات. وأن الأرض جرم سماوي[٥٧] لا يستند إلى شيء، ولكنه يبقى في

مكانه بسبب تساوي بُعده عن كل شيء. وأن شكلها أسطوانة مائية[٥٨] كعمود حجري؛ وأننا ندوس على أحد سطحيها، ولكن هناك سطح آخر مقابل له. وأن النجوم دائرة من نار متميزة عن نار الكون، ولكنها محاطة بالهواء. وأن هناك انبعاثات نارية معينة في الأماكن التي تظهر فيها النجوم، وبسبب حجب هذه الانبعاثات تحدث الكسوفات. وأن القمر يظهر أحيانًا متزايدًا وأحيانًا متناقصًا بسبب حجب أو إغلاق مساراته. وأن دائرة الشمس أكبر بـ ٢٧ مرة من دائرة القمر، وأن الشمس في أعلى نقطة في السماء، بينما دوائر النجوم الثابتة في أدنى نقطة. وأن الحيوانات وُجدت من رطوبة تبخرت بفعل الشمس. وأن الإنسان كان في البداية شبيهًا بحيوان آخر، ألا وهو السمكة. وأن الرياح تنشأ من انفصال وتكثف ذرات الهواء الدقيقة[٥٩]، وأن المطر ينبع من الأرض التي تعيد تحت حرارة الشمس ما تحصل عليه من السحب[٦٠][٤٣]، وأن البرق ينشأ من انفصال السحب بفعل الرياح التي تهب عليها. وُلد في السنة الثالثة من الدورة الأولمبية الثانية والأربعين.[٦١]

٦ .عن أناكسيمينس.

عن أناكسيمينس. قال أناكسيمينس، وهو ميليسي وابن يوريسترانوس، إن البداية كانت هواءً لا حدود له، منه وُجد كل ما كان وما هو كائن وما سيكون، من آلهة وأشياء إلهية، بينما جاء الباقي من نسلهم. لكن حالة الهواء هي أنه عندما يكون متجانسًا[62] يكون غير مرئي للعين، ولكنه يصبح محسوسًا بالبرد والحرارة، بالرطوبة والحركة. وهو دائم الحركة، فكل ما هو

متغير[63] لا يتغير إلا إذا تحرك. إذ يبدو مختلفًا عندما يتكثف وعندما يتخلخل. فعندما يتخلخل أكثر، تتكون النار؛ وعندما يتكثف مرة أخرى إلى حد ما، تتكون سحابة من انضغاط الهواء؛ وعندما يتكثف أكثر، يتكون الماء؛ وعندما يتكثف بالكامل، تتكون الأرض؛ وعندما يتكثف إلى أقصى درجة، تتكون الحجارة. وبالتالي، فإن الحكام الرئيسيين للتكوين هما متناقضان، وهما الحرارة والبرودة. ويقول إن الأرض سطح مستوٍ محمول على الهواء كما الشمس والقمر والنجوم الأخرى.[64] فكل الأشياء النارية تنتقل عبر الهواء جانبيًا.[65] وأن النجوم تتكون من الأرض بسبب الضباب المتصاعد منها والذي يتحول إلى نار عند ترققه، ومن هذه النار الصاعدة[66] تُبنى النجوم. ويقول إن هناك طبائع شبيهة بالأرض تحل محل النجوم وتنتقل معها. لكنه يقول إن[44] النجوم لا تتحرك تحت الأرض، كما يفترض البعض، بل تدور حول الأرض[67] كما تُقلب قبعة على رأس المرء، وأن الشمس محجوبة، ليس لأنها تحت الأرض، بل لأنها محجوبة بأجزاء الأرض العليا، وبسبب إنها أبعد عنا. وبسبب بعدها الشاسع، لا تُصدر النجوم حرارة. وتتكون الرياح عندما يتسرب الهواء بعد تكثفه مُخففًا؛ ولكن عندما يتجمع ويتكثف بالكامل، يتحول إلى غيوم، وبالتالي إلى ماء. ويتكون البَرَد عندما يتجمد الماء المتساقط من الغيوم؛ ويتكون الثلج عندما تكون الغيوم نفسها أكثر رطوبة عند تجمدها. ويحدث البرق عندما تُباعد قوة الرياح بين الغيوم؛ فعندما تُباعد، يحدث وميض ساطع وناري. ويتكون قوس قزح عندما تسقط أشعة الشمس على الهواء المتجمد، ويحدث الزلزال نتيجة ازدياد حجم

الأرض بفعل التسخين والتبريد. هذا هو أناكسيمينس. ازدهر في السنة الأولى من الأولمبياد الثامن والخمسين تقريبًا.

7 .عن أناكسغوراس.

وبعده كان أناكسغوراس الكلازوميني، ابن هيجيسيبولوس. قال إن بداية الكون كانت العقل والمادة، فالعقل هو الخالق والمادة هي ما وُجد.[70] فعندما اجتمعت كل الأشياء، جاء العقل ورتبها. ويقول، مع ذلك، إن المبادئ المادية لا حدود لها، حتى أصغرها. وأن كل الأشياء تشارك في الحركة، إذ تُحركها العقل، وأن الأشياء المتشابهة تجتمع معًا. وأن الأشياء في السماء رُتبت بحركتها الدائرية.[71] ولذلك، فإن ما كان كثيفًا ورطبًا ومظلمًا وباردًا وكل شيء ثقيل اجتمع في المنتصف،[45] ومن انضغاط هذا تجمعت الأرض؛[72] أما الأضداد، أي الحار والساطع والخفيف، فقد انجذبت إلى الأثير البعيد. كما أن الأرض سمينة الشكل وتبقى معلقة[73] بسبب ضخامة حجمها، ولأنه لا يوجد فراغ ولأن الهواء الأقوى يحمل الأرض. وأن البحر موجود من رطوبة الأرض ومياهها التي تتبخر ثم تتكثف في مكان منخفض؛[74] ويُفترض أن البحر قد نشأ من هذا ومن الأنهار التي تصب فيه. والأنهار أيضًا تتكون من الأمطار والمياه الموجودة داخل الأرض؛ لأن الأرض جوفاء وتحتفظ بالماء في تجاويفها. ولكن النيل يزداد في الصيف عندما تُحمل الثلوج من الأجزاء الشمالية إليه. وأن الشمس والقمر وجميع النجوم أحجار ملتهبة وتدور بفعل دوران الأثير. وأن الشمس والقمر وبعض الأجرام التي لا نراها تدور معًا أسفل النجوم. وأننا لا نشعر بحرارة النجوم بسبب

بعدها الشاسع عن الأرض؛ ومع ذلك فإن حرارتها ليست مثل حرارة الشمس لأنها تشغل منطقة أبرد. وأن القمر أسفل الشمس وأقرب إلينا؛ وأن حجم الشمس أكبر من حجم شبه جزيرة بيلوبونيز. وأن القمر لا يملك ضوءًا خاصًا به، بل ضوءًا من الشمس فقط. وأن دوران النجوم يحدث تحت الأرض. وأن القمر يُخسف عندما تحجبه الأرض، وأحيانًا النجوم التي تقع أسفل القمر،[75] والشمس عندما يحجبها القمر أثناء المحاق. وأن كلًا من الشمس والقمر يدوران (انقلابين شمسيين) عندما يدفعهما الهواء للخلف؛ لكن القمر يدور غالبًا لعدم قدرته على مقاومة البرد. كان أول من حدد حقائق الخسوف وتجدد الضوء.[76] وقال إن القمر يشبه[46] الأرض، وفيه سهول وأودية. وأن درب التبانة هو انعكاس لضوء النجوم التي لا تضيئها الشمس. وأن الشهب (ص 23) هي شرارات تتطاير من حركة القطب. وأن الرياح تنشأ من تخلخل الهواء بفعل الشمس، ومن جفافه كلما اقترب من القطب وابتعد عنه. وأن العواصف الرعدية تنشأ من الحرارة المتساقطة على السحب. وأن الزلازل تحدث نتيجة سقوط الهواء العلوي على الهواء السفلي؛ فعندما يتحرك هذا الأخير، تهتز الأرض التي يحملها. وأن الحيوانات في البدء خُلقت من الماء، ثم من بعضها البعض، وأن الذكور يولدون عندما تلتصق الحيوانات المنوية المفرزة من الأعضاء التناسلية المناسبة بالأعضاء التناسلية المناسبة، والإناث عندما يحدث العكس. وقد ازدهر في السنة الأولى من الأولمبياد الثامن والثمانين، وهو الوقت الذي يُقال إن أفلاطون وُلد فيه تقريبًا.[77] ويُقال أيضًا أن أناكسغوراس اكتسب معرفة بالمستقبل.

8 .عن أرخيلاوس.

كان أرخيلاوس من أصل أثيني، وهو ابن أبولودوروس. وقد أكد، مثله مثل أناكسغوراس، على الطبيعة المختلطة للمادة، ووافقه الرأي بشأن بداية الأشياء. لكنه قال إن مزيجًا معينًا[78] متأصلٌ في العقل، وأن مصدر الحركة هو انفصال الحرارة والبرودة عن بعضهما، وأن الحرارة تتحرك بينما تبقى البرودة ثابتة. وأضاف أن الماء، عند تسخينه، يتدفق إلى مركز الكون حيث يتكون الهواء الساخن والأرض، ومنها يولد الإنسان.

أحدها في الأعلى والآخر في الأسفل. والأرض ثابتة وموجودة بفضل ذلك، وتقع في مركز الكون، الذي لا تُشكّل جزءًا منه، والذي نُجّي من الاحتراق.[79] أولى نتائج هذا الاحتراق هي طبيعة النجوم،[47] وأعظمها الشمس، وثانيها القمر، بينما بعضها الآخر أكبر وبعضها أصغر. ويقول إن السماء مقوّسة فوقنا[80] وجعلت الهواء شفافًا والأرض جافة. لأنها كانت في البداية بركة؛ إذ كانت عالية عند الأفق، لكنها مجوفة في المنتصف. ويستشهد كدليل على هذا التجويف، بأن الشمس لا تشرق وتغرب في الوقت نفسه في جميع الأجزاء كما لو كانت الأرض مستوية. أما بالنسبة للحيوانات، فيقول إن الأرض سُخّنت أولًا في الجزء السفلي عندما اختلط الساخن والبارد، فظهر الإنسان[81] والحيوانات الأخرى. وكانت جميع الأشياء مختلفة عن بعضها البعض، وكان لها النظام الغذائي نفسه، إذ تغذّت على الطين. واستمر هذا الوضع لفترة وجيزة، ولكن في النهاية نشأ جيلٌ تلو الآخر، وتميّز الإنسان عن سائر الحيوانات، وأقام

رؤساءً وقوانين وفنونًا ومدنًا وغير ذلك. ويقول إن العقل فطري في جميع الحيوانات على حد سواء، إذ إن كل كائن حيّ مزوّد بالعقل[82]، بعضهم أبطأ وبعضهم أسرع من غيرهم.

ثم امتدت الفلسفة الطبيعية من طاليس إلى أرخيلاوس، وكان سقراط من بين مستمعيها. ولكن هناك أيضًا العديد من الفلاسفة الآخرين الذين طرحوا مذاهب مختلفة حول الإله وطبيعة الكون، والذين لو أردنا عرض آرائهم جميعًا لاحتجنا إلى مجلدات ضخمة. ولكن من الأفضل، بعد أن نذكر بالاسم أولئك الذين يُعتبرون، إن صح التعبير، روادًا لكل من تفلسف في العصور اللاحقة، والذين وضعوا أسسًا لأنظمة فلسفية، أن ننتقل سريعًا إلى ما يلي[83].

9 .حول بارمنيدس.

ص. ٢٦. فقد افترض بارمنيدس أيضًا أن الكون أزلي وغير مخلوق وكروي الشكل.[٨٤] ولم يتجنب[٤٨] الرأي الشائع الذي يجعل النار والأرض مبدأي الكون، فالأرض هي المادة، والنار هي السبب والخالق. [قال إن العالم المنظم سيُدمر، لكنه لم يوضح كيف.][٨٥] ولكنه قال إن الكون أزلي وغير مخلوق وكروي الشكل ومتساوي في كل مكان، لا يحمل أثرًا ولا يتحرك وله حدود محددة.

١٠ .حول ليوكيبوس.

لكن ليوكيبوس، رفيق زينون، لم يتبنَّ نفس رأي بارمنيدس، بل قال إن كل الأشياء لا حدود لها ودائمة الحركة، وأن الولادة والتغيير لا ينقطعان. وقال إن الامتلاء والفراغ عنصران. وقال

أيضًا إن العوالم المنظمة نشأت على النحو التالي: عندما ازدحمت أجسام كثيرة معًا. ٢٧. وتدفقت من المحيط[٨٦] إلى فراغ عظيم، وعندما تلامست، اندمجت العناصر المتشابهة في الشكل والمضمون، ومن تداخلها نشأت عناصر أخرى وتكاثرت وتناقصت بفعل ضرورة معينة. لكنه لم يُحدد ماهية هذه الضرورة.

١١ .عن ديموقريطس.

كان ديموقريطس من معارف ليوكيبوس. وهذا هو ديموقريطس الأبديري، ابن داماسيبوس،[٨٧] الذي التقى بالعديد من الجيمنوسوفيين بين الهنود، وبالكهنة والمنجمين[٨٨] في مصر، وبالمجوس في بابل. لكنه يتحدث مثل ليوكيبوس عن العناصر، أي الامتلاء والفراغ، قائلاً إن الامتلاء هو ما هو موجود، والفراغ هو ما ليس موجودًا، وقال هذا لأن الأشياء تتحرك باستمرار في الفراغ. قال أيضًا إن العوالم المنظمة لا حدود لها وتختلف في الحجم، وأنه في بعضها لا شمس ولا قمر، بينما في عوالم أخرى كلاهما أكبر مما هو عليه عندنا، وفي عوالم أخرى أكثر عددًا. (ص ٢٨). وأن الفواصل بين العوالم المنظمة غير متساوية، فبعضها أطول وبعضها أقصر، وأن بعضها يزداد، وبعضها يزدهر، وبعضها يضمحل، وبعضها يولد وبعضها يخبو. (ص ٨٩) لكنها تُدمر باصطدامها ببعضها. وأن بعض العوالم المنظمة خالية من الحيوانات والنباتات والماء. وأن الأرض في كوننا وُجدت أولًا من النجوم، وأن القمر هو أدنى النجوم، ثم تأتي الشمس، ثم النجوم الثابتة: لكن الكواكب ليست

جميعها على نفس الارتفاع. وكان يسخر من كل شيء، كما لو أن كل شيء بين البشر يستحق السخرية.

١٢ .عن زينوفانيس.

. لكن زينوفانيس الكولوفوني كان ابن أورثومينس.[90] وقد عاش حتى عهد كورش. أعلن أولًا عن استحالة إدراك كل شيء،[91] قائلًا:

مع أن أي شخص يجب أن يتحدث بيقين تام،

إلا أنه لا يعلم، وما يحدث في كل شيء هو مجرد تخمين.[92]

ص 29. لكنه يقول إنه لا شيء يُخلق، ولا يفنى، ولا يتحرك، وأن الكون الواحد لا يتغير. لكنه يقول إن الله أزلي، وواحد في كل جوانبه، ومحدود كروي الشكل، وواعٍ[93] في جميع أجزائه. وأن الشمس تولد كل يوم من فجر الكون.

قال إن الأرض لا حدود لها، لا يحيط بها هواء ولا سماء، وأن هناك شموسًا وأقمارًا لا حصر لها، وأن كل شيء من الأرض. وقال إن البحر مالح بسبب المركبات العديدة التي تتدفق إليه معًا. لكن مترودوروس قال إن البحر يصبح مالحًا بفضل تسربه عبر الأرض. ويرى زينوفانيس أنه كان هناك في يوم من الأيام مزيج من الأرض والبحر، وأنه مع مرور الوقت تحرر من الرطوبة، مؤكدًا كدليل على ذلك وجود أصداف في وسط الأرض وعلى الجبال، وأنه في محاجر الحجارة في سيراكوزا وُجدت آثار أسماك وفقمات، وفي باروس وُجدت آثار

مرساة تحت سطح الصخر، وفي مالطا وُجدت طبقات من جميع الكائنات البحرية. ويقول إن هذه الأشياء ظهرت عندما كانت جميع الأشياء مدفونة في الطين قديمًا، وأن آثارها جفت في الطين؛ لكن ص. ٣٠. أن البشرية جمعاء هلكت عندما تحولت الأرض إلى طين بعد إلقائها في البحر، ثم عادت لتنبت من جديد، وأن هذه الكارثة حلت بجميع العوالم المنظمة.[٩٥]

١٣ .عن إكفانتوس.

قال إكفانتوس، وهو من سيراكوز، إنه لا يمكن اكتساب معرفة حقيقية بالأشياء الموجودة. لكنه يُعرّف، كما يظن، أن الأجسام الأولى غير قابلة للتجزئة، وأن هناك ثلاثة اختلافات[٩٦] بينها، وهي: الحجم، والشكل، والقوة. وعددها محدود وليس بلا حدود؛ لكن هذه الأجسام لا تتحرك بفعل الوزن ولا بفعل الاصطدام، بل بقوة إلهية يسميها (ص ٣١) العقل والنفس. ومثال هذه القوة هو الكون، ولذلك أصبح كرويًا بفعل القوة الإلهية. وأن الأرض في وسط الكون تدور حول مركزها من الغرب إلى الشرق.[٩٧]

١٤ .حول هيبو.

لكن هيبو الريجيمي[٩٨] قال إن المبادئ باردة كالماء، وحارة كالنار. وأن النار انبثقت من الماء، وبتغلبها على قوة أصلها، شيدت الكون. ولكنه قال إن الروح أحيانًا تكون دماغًا وأحيانًا ماءً؛ لأن البذرة أيضًا[٥١] تبدو لنا من الرطوبة، ومنها، كما يقول، تولد الروح.

إذن، يبدو أننا قد أوضحنا هذه الأمور بما فيه الكفاية. ولذلك، بما أننا استعرضنا آراء الفيزيائيين بشكل منفصل، فمن المناسب أن نعود إلى سقراط وأفلاطون، اللذين فضّلا دراسة الأخلاق بشكل خاص.

١٥ .حول سقراط.

أصبح سقراط من أتباع أرخيلاوس الفيزيائي، وأعطى أهمية كبيرة لمبدأ "اعرف نفسك"، وبعد أن أسس مدرسة كبيرة، اعتبر أفلاطون أكفأ تلاميذه. لم يترك سقراط أي كتابات وراءه. ص ٣٢. لكن أفلاطون، وقد أعجب بحكمته البالغة[99]، أسس منهجًا يجمع بين الفيزياء والأخلاق والجدل. وما وضعه أفلاطون هو التالي:

16 .حول أفلاطون.

يُعرّف أفلاطون مبادئ الكون بأنها الله والمادة والنموذج. يقول إن الله هو خالق هذا الكون ومنظمه، وهو أيضًا خالقه ومدبّر شؤونه.[100] والمادة هي أساس كل شيء، وهي التي يسميها أفلاطون "المُستقبِل" و"الحاضن".[101] ومنها، بعد أن رُتّبت، انبثقت العناصر الأربعة التي بُني منها الكون، وهي: النار والهواء والأرض والماء.[102] ومنها بدورها بُنيت جميع الأشياء المركبة الأخرى، أي الحيوانات والنباتات. أما النموذج فهو فكرة الله، التي يسميها أفلاطون أيضًا "الأفكار"، والتي على أساسها، كما لو كانت صورة في النفس،[103] صاغ الله[104] كل شيء.[52] ص 33. قال إن الله بلا جسد ولا صورة، ولا يُدركه إلا

الحكماء؛ أما المادة فهي جسد كامن، لكنها ليست جسدًا فعليًا. ولأنها بلا صورة ولا صفة، فإنها تكتسب صورًا وصفات لتصبح جسدًا.[105] إذن، المادة مبدأ، وهي متزامنة مع الله، والكون غير مولود. لأنه، كما يقول، بنى نفسه من ذاته.[106] وهو في كل شيء يشبه غير المولود، وهو خالد. ولكن بقدر ما يُفترض أن الجسد[107] مُكوَّن من صفات وأفكار كثيرة، فهو مولود وفاسخ. لكن بعض الأفلاطونيين خلطوا بين الرأيين، فصنعوا مثلًا كهذا: كما أن العربة يمكن أن تبقى سليمة إلى الأبد إذا أُصلحت جزءًا جزءًا، فحتى لو هلكت الأجزاء في كل مرة، تبقى العربة كاملة؛ إذن، الكون، مع أنه يفنى جزءًا جزءًا، يُعاد بناؤه ويُعوَّض عن الأجزاء المفقودة، ويبقى أبديًا.

ويقول البعض إن أفلاطون أعلن أن الله واحد، غير مولود، لا يفنى، كما يقول في كتاب القوانين: «الله، ص 34. لذلك، وكما تقول الحكاية القديمة، فهو يحمل بداية ونهاية ووسط كل شيء موجود».[108] وهكذا يُظهر وحدانيته من خلال احتوائه على كل شيء. لكن يقول آخرون إن أفلاطون كان يعتقد بوجود آلهة كثيرة بلا حدود[109] حين قال: «إله الآلهة، الذي أنا خالقه وأبوه».[110] بينما يرى آخرون أنه يعتبرها محدودة حين يقول: «زيوس العظيم، في «فعله، يقود مركبته المجنحة في السماء؛»[111] وعندما يذكر نسب[112] أبناء أورانوس وجي. ويقول آخرون أيضًا إنه كان يعتقد أن الآلهة مخلوقة، ولأنها مخلوقة، كان ينبغي أن تفنى تمامًا، ولكن بمشيئة الله تبقى خالدة، كما يقول في المقطع المقتبس سابقًا: «إله الآلهة،

الذي أنا صانعه وأبوه، والذي خلقته بمشيئتي لا يزول». حتى لو شاء الله أن تفنى، لكانت تفنى بسهولة. ولكنه يُقرّ بطبيعة الشياطين، ويقول إن بعضها صالح وبعضها شرير.

[53]

ويقول البعض إنه أعلن أن الروح غير مخلوقة وغير فانية[113] حين يقول: "كل نفس خالدة لأن ما يتحرك خالد"، حين يُبين أنها ذاتية الحركة وبداية الحركة. ويقول آخرون إنه خلقها وجعلها خالدة[114] بمشيئة الله؛ ويقول غيرهم إنها مركبة ومخلوقة وفانية. فهو يفترض أيضًا، في الصفحة 35، وجود وعاء خلط لها[115] وأن لها جسدًا بديعًا، ولكن كل ما خُلق لا بد أن يفنى. أما الذين يقولون إن الروح خالدة، فيؤيدهم جزئيًا قوله إن هناك أحكامًا بعد الموت، ومحاكم عدل في بيت الهاوية، وأن الصالحين يلتقون. مع ثواب حسن، وأن الأشرار يُعاقبون.[116] لذلك، يقول البعض إنه يُقر أيضًا بتغيير الأجساد وانتقال أرواح مُحددة مسبقًا إلى أجساد أخرى وفقًا لاستحقاق كل منها؛ وأنه بعد رحلات مُحددة، تُعاد هذه الأرواح إلى هذا العالم المُنظم لتُخضع نفسها لاختبار آخر من اختيارها. بينما يقول آخرون لا، بل إنها تنال مكانًا وفقًا لاستحقاق كل منها. ويستشهدون بقوله إن بعض الأرواح مع زيوس، بينما أرواح أخرى من الصالحين تجوب مع آلهة أخرى، بينما أرواح أخرى تُعاني من عذاب أبدي، أي أولئك الذين ارتكبوا في هذه الحياة أعمالًا شريرة وظالمة.[117] ويقولون إنه صرّح بأن بعض الحالات (ص 36) بلا وسيط، وبعضها بوسائط، وبعضها وسيط. فاليقظة والنوم بلا وسيط، وكذلك جميع الحالات المشابهة. ولكن هناك حالات بوسائط مثل الخير والشر؛ وحالات وسيطة

مثل الرمادي الذي يقع بين الأسود والأبيض. أو لون آخر.[118] ويقولون إنه يُعلن[54] أن الأمور المتعلقة بالروح وحدها هي الخير الأسمى، أما الأمور المتعلقة بالجسد أو ما هو خارجه فلم تعد خيرًا أسمى، وإنما يُقال عنها ذلك فقط. وأن هذه الأخيرة تُسمى غالبًا بالوسطى أيضًا؛ لأنه يمكن استخدامها بشكل جيد وسيء. ويقول لذلك إن الفضائل هي أطراف من حيث الشرف، ولكنها وسائل من حيث الجوهر.[119] لأنه لا يوجد شيء أشرف من الفضيلة؛ ولكن ما يتجاوز هذه الفضائل أو يقصر عنها ينتهي بالرذيلة. على سبيل المثال، يقول إن هذه هي الفضائل الأربع، وهي: الحكمة، والاعتدال، والعدل، والشجاعة، وأنه يتبع كل من هاتين الرذيلتين الإفراط والتفريط على التوالي. وهكذا، يتبع الحكمة التهور بالتفريط والمكر بالإفراط؛ ويتبع الاعتدال الإفراط بالتفريط والكسل بالإفراط؛ ويتبع العدل التواضع المفرط بالتفريط والطمع بالإفراط؛ ويتبع الشجاعة، ص. ٣٧. الجبن الناتج عن النقص، والتهور الناتج عن الإفراط.[١٢٠] وهذه الفضائل، إذا وُجدت في الإنسان، تعمل على بلوغه الكمال وتمنحه السعادة. لكنه يقول إن السعادة هي التشبه بالله قدر الإمكان. وأن أي إنسان يكون مثل الله عندما يصبح طاهرًا وعادلًا بنية صادقة. ولذلك، يفترض أن هذا هو هدف الحكمة والفضيلة الأسمى.[١٢١] لكنه يقول إن الفضائل تتبع بعضها بعضًا بالتتابع، وهي من نوع واحد، ولا تتعارض أبدًا؛ أما الرذائل فهي متعددة الأشكال، فتتتابع أحيانًا وتتعارض أحيانًا أخرى.[١٢٢]

ويقول، مرة أخرى، إن هناك قدرًا، ليس بالضرورة أن كل شيء يسير وفقًا للقدر، بل إن لنا بعض الخيارات، كما يقول بهذه الكلمات: "اللوم على المُختار: الله بريء"، ويقول أيضًا: "هذا

قانون من قوانين أدراستيا". وإذا كان يؤكد بذلك دور القدر، فقد كان يعلم أيضًا أن لاختيارنا دورًا ما.[123] لكنه يقول إن المعاصي لا إرادية. فإلى أجمل ما فينا، ألا وهو الروح، لا أحد يقبل[55] شرًا، أي ظلمًا؛ بل إنهم، عن جهل وخلط الخير، ظانين أنهم يفعلون خيرًا، يصلون إلى الشر.[124] وتفسيره لهذا الأمر واضحٌ جليّ في كتاب الجمهورية، حيث يقول: "وهل تجرؤون مرة أخرى على القول إن الرذيلة مخزية ومكروهة عند الله؟ كيف يختار المرء مثل هذا الشر؟ قد تقولون إنه يفعل ذلك من تغلبه ملذات الحواس. لذلك فهذا أيضًا فعل لا إرادي، إذا كان الغلبة فعلًا إراديًا. وهكذا، من خلال كل منطق، يثبت العقل أن الظلم لا إرادي." لكن أحدهم يعترض عليه في هذا: "لماذا إذًا يكون الناس" "غير مكتملين إذا تجاوزوا الحدود دون إرادة منهم؟" يجيب: "حتى يتخلصوا من الرذيلة بسرعة أكبر بالخضوع للتقويم."[125] فالخضوع للتقويم ليس سيئًا بل حسن، إذا أدى إلى التطهير من الرذائل، وإذا سمع به بقية البشر فلن يرتكبوا الخطأ، بل سيحذرون منه.[126] ويقول، مع ذلك، إن طبيعة الشر ليست من عند الله، وليست لها طبيعة خاصة بها؛ بل تنشأ بالتناقض، وتتبع الخير، إما كزيادة أو نقصان، كما ذكرنا سابقًا عن الفضائل.[127] وهكذا، كما ذكرنا سابقًا في الصفحة 39، جمع أفلاطون الأقسام الثلاثة للفلسفة العامة، وفلسف بهذه الطريقة.

17 .عن أرسطو.

حوّل أرسطو، الذي كان من مستمعي هذا الرأي الأخير، الفلسفة إلى علم، واستدلّ بشكل أدق، مؤكدًا أن عناصر كل الأشياء هي الجوهر والعرض.[128] وقال إن هناك جوهرًا واحدًا يكمن

وراء كل الأشياء،[56] ولكن تسعة الأعراض، وهي الكمية، والنوعية، والعلاقة، والمكان، والزمان، والملكية، والموقع، والفعل، والانفعال. ولذلك، فإن الجوهر هو الله، والإنسان، وكل ما يندرج تحت التعريف نفسه: أما فيما يتعلق بالأعراض، فتُرى النوعية في تعابير مثل أبيض أو أسود؛ والكمية في "ذراعان أو ثلاثة أذرع طولًا أو عرضًا"؛ والعلاقة في "أب" أو "ابن"؛ والمكان في تعابير مثل "أثينا" أو "ميغارا"؛ والزمان في تعابير مثل "في الأولمبياد العاشر"؛ والملكية في تعابير مثل "اكتساب الثروة"؛ والفعل في تعابير مثل "الكتابة، والقيام بأي شيء عمومًا"؛ والانفعال في تعابير مثل "التعرض للضرب". ويفترض أيضًا أن بعض الأشياء لها وسائل، بينما لا يملك البعض الآخر وسائل، كما ذكرنا سابقًا عن أفلاطون (ص 40). وهو يتفق مع أفلاطون في معظم الأمور باستثناء رأيه في الروح. فأفلاطون يعتقد أنها خالدة، بينما يرى أرسطو أنها تبقى بعد هذه الحياة، وأنها تتلاشى في الجسد الخامس الذي يُفترض وجوده مع الأجساد الأربعة الأخرى، وهي: النار، والأرض، والماء، والهواء، ولكنه أدق منها وأشبه بالروح.[129] ومرة أخرى، بينما قال أفلاطون إن الخيرات الوحيدة هي تلك المتعلقة بالروح، وأنها كافية للسعادة، يقدم أرسطو ثلاثية من الفوائد، ويقول إن الحكيم لا يكون كاملًا إلا إذا توفرت لديه خيرات الجسد وما هو خارجه. وهذه الخيرات هي: الجمال، والقوة، ودقة الحس، والكمال؛ أما الخيرات الخارجية فهي: الثروة، والنسب الرفيع، والمجد، والسلطة، والسلام، والصداقة؛ أما الخيرات الداخلية المتعلقة بالروح فهي، كما اعتقد أفلاطون: الحكمة،

والاعتدال، والعدل، والشجاعة.[130] ويقول أرسطو أيضًا إن الشر موجود، ويأتي مناقضًا للخير، ويقع أسفل مستوى القمر، وليس فوقه.

ويقول كذلك إن روح العالم المنظم أبدي، أما روح الإنسان فتزول كما ذكرنا في الصفحة 41 أعلاه. وقد تفلسف أرسطو أثناء إلقاء محاضراته في الليسيوم، بينما تفلسف زينون في الرواق المزخرف. وقد سُمّي أتباع زينون بهذا الاسم نسبةً إلى المكان، أي أنهم سُمّوا بالرواقيين نسبةً إلى الرواق، أما أتباع أرسطو فقد سُمّوا نسبةً إلى أسلوب دراستهم. فقد كانوا يُجرون أبحاثهم[57] أثناء تجولهم في الليسيوم، ولذلك سُمّوا بالمشائيين. هذا هو أرسطو[131].

18 .حول الرواقيين.

أضاف الرواقيون أنفسهم إلى الفلسفة من خلال زيادة استخدام القياس المنطقي،[132] وقد أدرجوا ذلك في معظم تعريفاتهم، إذ اتفق خريسيبوس وزينون في هذا الرأي. وقد افترضوا أيضًا أن الله هو بداية كل شيء، وأنه أنقى جسد، وأن عنايته تشمل كل شيء.[133] لكنهم يقولون بشكل قاطع إن الوجود في كل مكان يخضع للقدر، مستخدمين تشبيهًا كهذا: أي أنه ككلب مربوط بعربة، إذا رغب في اتباعها، فإنه يُجرّ معها ويتبعها بإرادته، فيفعل في الوقت نفسه (ص 42) ما يشاء وما يجب عليه بفعل إكراه كالقدر.[134] أما إذا لم يرغب في اتباعها، فإنه يُجبر عليها تمامًا. ويقولون إن الأمر نفسه ينطبق على البشر. فحتى لو لم يرغبوا في اتباعها، فإنهم سيُجبرون تمامًا على الوصول إلى ما قُدِّر لهم. ويقولون إن الروح تبقى بعد

الموت، وأنها[58] جسد[135] وتولد من برودة هواء المحيط. ومن هنا جاء اسم النفس.[136] لكنهم يقرّون بوجود تبديل للأجساد للأرواح التي خُصصت لذلك.[137] ويتوقعون حدوث تطهير شامل لهذا الكون، فيقول بعضهم إنه سيكون تطهيرًا كليًا، بينما يقول آخرون إنه سيكون تطهيرًا جزئيًا، وأنه سيُطهّر جزءًا جزءًا. ويسمّون هذا الدمار التقريبي وولادة كون آخر منه بالتطهير.[138] ويفترضون أن كل الأشياء أجساد، وأن جسدًا يمر عبر آخر؛ ولكن هناك قيامة[139] وأن كل الأشياء ممتلئة ولا وجود للفراغ. وهذا ما قاله الرواقيون أيضًا.

19. حول إبيقور.

ص 43. لكن إبيقور كان يعتقد رأيٌ يكاد يكون مناقضًا لجميع الآراء الأخرى. فقد افترض أن بدايات الكليات كانت ذرات وفراغًا؛ وأن الفراغ هو، كما لو كان، مكان الأشياء التي ستكون؛ وأن الذرات هي المادة، التي منها وُجدت كل الأشياء. وأن من اجتماع الذرات وُجد كلٌّ من الله وجميع العناصر، وأن فيها جميع الحيوانات والأشياء الأخرى، بحيث لا يُنتَج شيءٌ أو يُبنى إلا من الذرات. وقال إن الذرات هي أدق الأشياء، وأنه لا يمكن أن يكون فيها نقطة، ولا علامة، ولا أي تقسيم على الإطلاق؛ ولذلك سماها ذرات.[140] ومع أنه يُقرّ بأن الله أزليٌّ لا يفنى، إلا أنه يقول إنه لا يُبالي بأحد، وأنه باختصار لا عناية إلهية ولا قدر، بل كل الأشياء تُوجد تلقائيًا.[59] لأن الله موجود في الفضاءات الميتا-كونية، كما يسميها. لأنه كان يعتقد بوجود مسكن إلهي خارج الكون يُسمى الميتاكوزميا، وأنه (ص 44) ينعم براحته ويرتاح في لذة عظيمة، وأنه لا يفعل شيئًا بنفسه ولا يُدبّر أمور الآخرين. ونتيجةً لذلك، وضع إبيقور نظريةً

عن الحكماء، قائلًا إن غاية الحكمة هي اللذة. لكن الناس يختلفون في فهمهم للذة؛ فمنهم من يفهمها على أنها الرغبات، ومنهم من يفهمها على أنها اللذة التي تأتي بالفضيلة. ولكنه كان يعتقد أن أرواح البشر تُفنى مع أجسادهم كما تُولد بها، لأن هذه الأرواح هي الدم، الذي إذا خرج أو تغير، هلك الإنسان كله. ومن ثم، لا توجد أحكام ولا محاكم عدل في بيت هاديس، بحيث لا يُحاسب أحد على أي فعل يقوم به في هذه الحياة دون أن يُلاحظ.[141] هذا ما قاله إبيقور.

20 .عن الأكاديميين.

لكن هناك طائفة أخرى من الفلاسفة تُسمى بالأكاديميين (ص 44). ٤٥. من خلال عقد مناقشاتهم في الأكاديمية، التي أسسها بيرو، والذي سُمّوا بالفلاسفة البيرونيين نسبةً إليه. قدّم بيرو أولًا عقيدة عدم إمكانية إدراك كل شيء، حتى يتمكن من الجدال حول أي جانب من جوانب المسألة، دون أن يُقرّ بأي شيء بشكل قاطع. فقد قال إنه لا يوجد شيء يُدركه العقل أو تُحسّه الحواس وهو صحيح، بل يبدو كذلك فقط. وأن كل مادة في حالة تدفق وتغير، ولا تبقى على حالها أبدًا. يقول بعض الأكاديميين إنه لا ينبغي لنا إصدار أحكام قاطعة بشأن مبدأ أي شيء، بل مجرد مناقشته وتركه كما هو؛ بينما فضّل آخرون مقولة "لا تفضيل"، قائلين إن النار ليست نارًا، بل هي شيء آخر. فهم لم يُقرّوا بماهيتها، بل بنوعها فقط.

]٦٠[

٢١ .عن البراخمان بين الهنود.

عن البراخمان بين الهنود. لدى الهنود أيضًا طائفة من الفلاسفة تُعرف باسم البراخمان[144]، الذين يختارون لأنفسهم حياةً مستقلة، ويمتنعون عن كل ما كان حيًا، وعن اللحوم المُعدّة على النار (ص 46). ويكتفون بالثمار[145]، لكنهم لا يجمعونها، بل يعيشون على ما يسقط على الأرض، ويشربون ماء نهر تاجابينا[146]. ويقضون حياتهم عراة، قائلين إن الله خلق الجسد لباسًا للروح. ويقولون إن الله نور؛ ليس ذلك النور الذي يُرى، ولا كالشمس والنار، بل هو بالنسبة لهم الكلمة الإلهية، لا تلك التي تُنطق، بل تلك التي تنبع من المعرفة، والتي بها يرى الحكماء أسرار الطبيعة الخفية. لكن هذا النور الذي يقولون إنه الكلمة، الله، يُعلنون أنهم وحدهم، كبراخمان، يعرفونه، لأنهم وحدهم من نبذوا التفكير الباطل الذي هو آخر رداء للروح. إنهم يحتقرون الموت. لكنهم يذكرون اسم الله بلغتهم، كما ذكرنا سابقًا، ويرفعون إليه الترانيم. ولا توجد بينهم نساء، ولا ينجبون أطفالًا.[147] أما الذين تمنوا حياةً مثل حياتهم، فبعد أن يعبروا إلى الضفة المقابلة للنهر،[148] يبقون هناك دائمًا ولا يعودون أبدًا؛ ويُطلق عليهم أيضًا اسم براخمان. ومع ذلك، فهم لا يقضون حياتهم بالطريقة نفسها؛ إذ توجد نساء في البلاد، يُولد منهن سكانها وينجبن. لكنهم يقولون إن هذه الكلمة، التي يسمونها الله، جسدية،[61] مُحاطة بجسد خارج ذاته، كما لو كان المرء يرتدي ثوبًا من جلود الأغنام؛ ولكن الجسد الذي يُلبس، عندما يُخلع، يظهر للعين.[149] لكن البراخمان يزعمون أن هناك حربًا في الجسد الذي يرتدونه [ويعتبرون جسدهم مليئًا بعناصر متحاربة]، يحاربون ضدها كما لو كانوا في مواجهة

أعداء، كما أوضحنا سابقًا. ويقولون إن جميع البشر أسرى لأعدائهم الفطريين، وهم البطن والأعضاء التناسلية، والجشع، والغضب، والفرح، والحزن، والرغبة، وما شابه ذلك. ولكن من ينتصر على هذه الأمور وحده يذهب إلى الله. ولذلك، يجعل البراخمان من دانداميس، الذي زاره الإسكندر المقدوني، عرافًا [151] باعتباره من انتصروا في الحرب بأجسادهم. لكنهم يتهمون كالانس بالانحراف عن فلسفتهم. أما البراخمان، فيُزيلون الجسد، كما في الصفحة 48، الأسماك التي قفزت من الماء إلى الهواء النقي، فيُبصرون الشمس[152].

22 .عن الدرويديين بين السلتيين.

اهتم الدرويديون بين السلتيين بأدق التفاصيل في الفلسفة الفيثاغورية، وكان زامولكسيس، عبد فيثاغورس، وهو من أصل تراقي، يُعتبر عندهم مؤسس هذه الفلسفة. بعد وفاة فيثاغورس، سافر إلى بلادهم وأصبح، في نظرهم، مؤسس هذه الفلسفة.[153] [62] يُمجّد السلتيون الدرويديين كأنبياء وعرافين للمستقبل لأنهم يتنبأون لهم ببعض الأمور من خلال رموز وأرقام الفن الفيثاغوري. لن نغفل عن مبادئ هذا الفن نفسه، إذ تجرأ بعض الرجال على إدخال بدع مبنية عليها. مع ذلك، يستخدم الدرويديون أيضًا فنون السحر.

ص ٤٩.

٢٣ .عن هسيود.[١٥٤]

لكن الشاعر هسيود يقول إنه سمع هو الآخر هذا الكلام من ربات الإلهام عن الطبيعة. ربات الإلهام هن بنات زيوس. فبعد أن عانق زيوس منيموسين من شدة رغبته تسعة أيام وليالٍ متتالية، حملت بهن في رحمها الواحد، فكانت تستقبل واحدًا كل ليلة. الآن يستحضر هسيود ربات الإلهام التسع من بيريا، أي من أوليمبوس، ويتوسل إليهن أن يعلمنه[155]:

"كيف وُجدت الآلهة والأرض أولًا؛

الأنهار والبحر الذي لا يُقاس

هائج في زبده: النجوم المتلألئة؛

السماء الشاسعة؛...

قلن كيف كانت كنوزهن،[156] وكيف وُزعت عليهن أرفع المراتب: كيف سكنّ أولًا

على أوليمبوس ذي الكهوف الكثيرة:ـــأخبرنني

ص 50. يا ربات الإلهام! يا ساكنات الجبل السماوي

منذ البدء؛ قلن من ظهر أولًا؟

"كان الفوضى أولًا، ثم الأرض ذات الصدر الرحب،

المقر الأبدي الذي لا يتزعزع

للآلهة الخالدة، الذين ما زالوا يسكنون قمة أوليمبوس

الثلجية." ثالثًا في العمق المجوف

من الأرض الشاسعة الممتدة فوقها

تارتاروس الكئيبة، ثم انبثق الحب

أجمل الخالدين: هو في آن واحد

من كل إله وكل إنسان فانٍ

يُزعزع الأطراف؛ يُذيب الصدر الأكثر حكمة

يُقسّي بالعقل، ويُخمد الروح نفسها.

"من الفوضى، إريبوس والليل الأسود...

[63]

من الليل انبثق ضوء الشمس والنهار[157]

الذين أنجبتهما باحتضان إريبوس المظلم

مختلطين.

"أرضها البكر أنتجت

من عظمة مماثلة،[158] السماء المرصعة بالنجوم:

ليحيط بها بظلاله

من كل جانب، ويكون إلى الأبد

مسكنًا لا يتزعزع للآلهة المباركة.

ثم ارتفعت التلال الشاهقة، المساكن البهيجة

لحوريات الآلهة، اللواتي يسكنّ بين وديان

الجبال. دون عون من حب رقيق

ص ٥١. أنجبت البحر العقيم، المتضخم بشدة

في رغوة هائجة؛ واحتضنته السماء، بعد قليل

امتلأت بالمحيط، يتدحرج في دوامات عميقة

هاوية مياهه الشاسعة

ثم كرويس،

كيوس، هايبريون وإيابتوس،

ثم نهضت ثيميس وثيا؛ منيموسين

وريا؛ فيبي المتوجة بالذهب،

وتيثيس الملهمة للحب؛ ومن هؤلاء،

جاء كرونوس الأصغر سنًا، الماكر،

أقسى أبنائها؛ وكان يكره

الأب الذي منحه الحياة

ثم أنجبت

العملاق ذو العين الواحدة المتغطرس.

ويعدد جميع العمالقة الآخرين المنحدرين من كرونوس. لكنه يروي في النهاية كيف وُلد زيوس من ريا.

إذن، أعلن هؤلاء الرجال جميعًا، كما بيّنا، آراءهم حول طبيعة الكون ونشأته. لكنهم جميعًا، إذ انصرفوا عن الإلهي إلى أمور أدنى، انشغلوا بجوهر الأشياء الموجودة. حتى أنهم عندما انبهروا بعظمة الخلق، وظنوا أنها من صنع الإلهي، فضّل كلٌّ منهم على الآخر جزءًا مختلفًا مما خُلق. لكنهم لم يكتشفوا الإله وخالقها.

لذا، أعتقد أنني قد عرضت بما فيه الكفاية آراء أولئك اليونانيين الذين شرعوا في التفلسف (ص ٥٢). وانطلاقًا من هذه الآراء، قام الهراطقة بمحاولاتهم التي سنرويها بإيجاز. ومع ذلك، يبدو من المناسب، ونحن نعلن أولًا الطقوس الصوفية،[١٥٩] أن نعلن أيضًا كل ما تخيله بعض الرجال[٦٤] عن النجوم أو درجاتها. فمن اتخذوا هذه الأفكار منطلقاتهم يُعتبرون في نظر الكثيرين عباقرة. وسنوضح فيما بعد، تباعاً، الآراء الباطلة التي اختلقوها.[160][161]